أحمد الجدع
نساء حول الرسول
Bibliotheca Alexandrina
0124384
دار البشير

نساء حول الرسول

• بسم الله الرحمن الرحيم •

1417 هـ - 1997 م

- الكتاب : نساء حول الرسول
- الكاتب : أحمد الجدع
- الطبعة : الثانية
- الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم - مصر
- التوزيع : دار البشير - طنطا - أمام كلية التربية النوعية
☎ 322404 - 356663 فاكس:228277
- التجهيز الفني : شركة الندى للتجهيزات الفنية .
المحلة الكبرى .ص . ب :265
- الإيداع القانوني : 1639 / 1993م
- الترقيم الدولي :

I - S - B - N 477 - 5065 - 45 -3

نساء حول الرسول

مطر

تأليف

أحمد الجدع


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

إهداء ورجاء...

إلى ابنتيَّ العزيزتين: أُمامة ودانة...

ضارعاً إلى الله أن يجعلهما من المؤمنات القانتات العابدات المجاهدات...

مؤملاً أن يتخذن من أمهات المؤمنين وصحابيات رسولنا الأمين قدوة ومثلاً...

أحمد الجدع

أبو حسان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. أما بعد:

فقد قامت دولة الإسلام الأولى، وبني المجتمع الإسلامي الأول على قاعدة متينة من تعاون الرجال والنساء والتفافهم حول رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ولقد تحدث المتحدثون كثيراً، وألف المؤلفون من الكتب جماً غفيراً حول دور الرجال في الدعوة الإسلامية في عصر الرسول، ولكن قليلاً من المتحدثين وقليلاً من الكتاب تناول الحديث عن دور نساء المسلمين في هذه الدعوة المباركة.

لقد كان دور النساء في عصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دوراً كبيراً وفاعلاً، التف حوله نفر منهن لمعت أسماؤهن في سماء الدعوة الإسلامية، وعرف الناس لهن دورهن في ميادين العمل المختلفة التي احتاجت إليها الدعوة حتى استوت دولة وحتى نصرها الله ومكن لها في الأرض.

ولقد سجلت المرأة في صفحة الإسلام الخالدة أسطراً من نور، ولقد أعطت المرأة الصحابية المثال والقدوة لكل امرأة مسلمة من بعدها حتى تكون مثلها وتحذو حذوها وتسلك سبيلها...

كانت النساء حول الرسول نجوماً وكواكب، تسطع وتضيء، ولم تكن منزوية في ركنها أو منصرفة إلى البسيط من شؤونها، بل شاركت وقدمت من ذاتها ومن نفسها، حتى أننا لا نجد عصراً من عصور التاريخ ساهمت فيه المرأة بهذا الفيض من العطاء مثل الذي نجده في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا أردنا أن نقدم المثال هنا لعظمة النساء اللواتي التففن حول الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الحقائق التالية تعد في الذروة من الأمثلة التي يمكن أن تسجل في تاريخ نساء العالمين. . .

ألا يكفي المرأة المسلمة فخراً أن كانت خديجة أول المسلمين؟

ألا يكفي المرأة المسلمة مجداً أن كانت سمية أول الشهداء في سبيل هذا الدين؟

ألا يكفي المرأة المسلمة اعتزازاً أن كانت أسماء ـ على صغر سنها ـ تغدو وتروح على غار ثور في أثناء هجرة سيد المرسلين؟

ألا يكفي المرأة المسلمة فخراً أن كانت أم عمارة ثابتة في معركة أحد إذ كان معظم الرجال من الفارين؟

ألا يكفي المرأة المسلمة مجداً أن كانت عائشة من أكثر المحدثين عن رسول رب العالمين؟

ألا يكفي المرأة المسلمة اعتزازاً أن كانت مشورتها في صلح الحديبية سبباً في وئام المسلمين؟

بلى، إن في سجل المرأة المسلمة أمجاداً وفخاراً لا يدنو منها مجد وفخار لنساء غيرهن في العالمين، فلماذا لا تتيه المرأة المسلمة بتاريخها وتعتز، ولماذا لا تفتخر المرأة المسلمة بأمجادها وتهتزّ، إن مما يهتز له نساء من نساء العالمين مواقف هي أقل مما وقفته المرأة المسلمة في عصر الدعوة الأولى، وإن مما يعتز

به نساءٌ من نساء العالمين أدنى بكثير مما سجلته المرأة المسلمة من مواقف حول رسول رب العالمين.

إن في صحائف التاريخ لأمجاداً، وإن في سجل الأيام لفخاراً، فهل آن لنا أن نفتح سجل الأيام ونقلب صحائف التاريخ حتى نتعلم من أمهاتنا وحتى نقتدي بسيداتنا، أولئك اللواتي جاهدن من أجل هذا الدين حول رسولنا الأمين؟

إنني وأنا أقلب سجل الفخار للمرأة المسلمة، وجدت من الحوادث وعرفت من المواقف ما يعز أن نجد مثله عند نساء غير نساء المسلمين. . .

هذه أم حرام بنت ملحان نام في بيتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستيقظ وهو يضحك، قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال ـ عليه السلام ـ : ناس من أُمتي عُرضوا عليَّ غزاةً في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة.

قالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم.

فدعا لها رسول الله أن تكون منهم.

ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: يا رسول الله ما يضحكك؟

قال ـ عليه السلام ـ : ناس من أُمتي عرضوا عليّ غزاةً في سبيل الله.

قالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم.

قال ـ عليه السلام ـ : أنت من الأولين![1]

انظروا إلى أين تمتد مطامح هذه الصحابية، انظروا إلى أين تمتد مطامحها وهي في المدينة المنورة ولم تتعد الدعوة الاسلامية حدود الجزيرة،

(١) حديث أم حرام بنت ملحان متفق عليه، وعند البخاري: أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا.

ولم يفكر المسلمون بعد بركوب البحار مجاهدين في سبيل الله. تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعلني منهم.

ويبشرها الرسول صلى الله عليه وسلم أنها من أولهم.

وتصدق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم حرام بنت ملحان، فتعيش حتى تدرك ولاية معاوية على الشام، وحتى تدرك أول غزوة بحرية للمسلمين، وتسارع إلى المشاركة في هذه الغزوة، وتنزل أم حرام أرض قبرص وفيها تموت شهيدة، وفيها تدفن - رضي الله عنها. . .

ألا يدعو ذلك إلى فخر لا حدود له؟ ألا يدعو ذلك نساء المسلمين أن يتذكرن ويحفظن ما لهن في قبرص من أمجاد؟. وقبرص ونساؤها المسلمات في عصر الهوان الذي نعيشه يسومهن الحاقدون الصليبيون مرّ العذاب؟!

لقد بعث هذا الدين في نساء المسلمين عزاً ومجداً، وهم به يحيون حياة السمو والفخار، ولقد أراد الأعداء لنسائنا أن يعشن حياة الذل والهوان، فشغلوهن بالتافه من الأمور، وبالصغائر من الأعمال. . . .

فهل آن الأوان لنسائنا أن ينهضن وأن يمددن أياديهن للمساهمة في نهضة الإسلام المعاصرة وصحوته المباركة؟

هذا أمل نرجوه، ومن أجله بسطنا الحديث في هذا الكتاب عن عدد من نساء الصحابة وقدمناه هدية إكبار وإجلال لأولئك المسلمات اللواتي أراهن في خيالي وقد خلعن عن أنفسهن لباس الغرب المتهالك وارتدين لباس الاسلام السامي، وانطلقن يحققن بجهادهن ما حققته من قبلهن اولئك النساء اللواتي وقفن حول الرسول يساهمن في الدعوة وفي البناء الشامخ للاسلام العظيم.

وإن خيال أولئك النساء القادمات مع الفجر الجديد سوف يغدو حقيقة واقعة وقد بدأت طلائعهن تهل مع بشائر النصر لديننا، بشائر النصر التي تلوح في أفق الاسلام الساطع من جديد.

أسأل الله العلي العظيم أن يستجيب لأمانينا في نصر الإسلام، ولدعواتنا في نهضة المسلمين، ولرجائنا في عودة المسلمات إلى سواء الصراط. . وأن يأجرنا على ما كتبنا في كتابنا هذا، وفي كتبنا الأخرى وأن يجعل هذا في صحائفنا يوم نلقاه، إنه هو السميع المجيب.

والحمد لله أولاً وآخراً.

الدوحة: في الثالث من شعبان عام ١٤٠٨ هـ

أحمد الجدع

خَديجَـة ... أوّل المُسلِمات

لا أعرف امرأة من العرب أو من غيرهم أشد فراسة من خديجة. . .

كانت خديجة على حظ من الجمال وعلى حظ وافر من الثراء. . توفي عنها زوجها، فتطلع إليها كثير من سادة مكة. . ولكنها لرجاحة في عقلها، كانت تستأني حتى تنظر أيهم ذلك الرجل الذي يملأ عينها ويلبي ما في نفسها من مثل كريمة وأخلاق سامية. . .

ووضع الله في طريقها محمد بن عبد الله، شاب يتيم الأبوين، فقير المال، لكنه غني بأخلاقه وصفاته حتى دعاه قومه بالأمين. . . .

خرج محمد في قافلة تجارية إلى الشام أميناً على مال خديجة، وكان معه في هذه الرحلة غلامها ميسرة، فشاهد من خلقه وفضله ما أذهله. . فقد كان فيه من الأخلاق والفضل فوق ما عرفه في سائر الرجال. . .

وعاد محمد بتجارة خديجة رابحاً، وتحدث ميسرة إلى سيدته بما رآه ولمسه من أخلاق محمد. . . ورأت خديجة محمداً واستمعت إليه حين جاء يحاسبها على تجارتها. . . رأت شاباً جميلاً يتدفق حيوية ويكاد النور يقفز من بين عينيه، ولمست أخلاقاً لم تعرفها لأحد سواه في قريش، على ما في قريش من أخلاق ومثل. . . فأعجبت به، وتوقعت أن يكون له شأن. . . ورغبت بأن

يكون لها في هذا الذي تنتظره من نصيب. . . فأرسلت إليه من تلمح له بأمر الزواج. . .

لقد تفرست خديجة في محمد بن عبد الله الخير، وتفرست فيه المستقبل الوضيء، وتفرست فيه جلائل الأعمال وتفرست فيه أحداثاً جساماً يكون فيها سيداً وقائداً وعظيماً. . . فأحبت أن تشارك هذا الفتى القرشي في كل ذلك وكان لها ما أرادت. . . فتزوجت منه، وأحاطته بكل ما لديها من حنان ورقة ورعاية، وهيأت له كل أسباب السعادة والطمأنينة، وشجعته بأخلاقها الرفيعة وسلوكها النبيل على التعبد والتبتل والتفكر في خلق الله. . . وبقي معها في سعادة وطمأنينة خمسة عشر عاماً حتى أتاه الوحي من رب العالمين. . .

* * *

فاجأ الوحي محمد بن عبد الله في غار حراء. . .

كان ـ عليه السلام ـ يجلس في الغار متفكراً في خلق الله، متفكراً في هذا الكون من بناه. . . متفكراً فيما عليه الناس من ضنك الحياة. . . كان الغار بعيداً عن العمران. . . كان في رأس جبل يلفه السكون ويغلفه الهدوء. . . وفجأة يسمع محمد من يقول له: اقرأ.

وأصابته دهشة المفاجأة. . . اقرأ.

وقال بصوت خفيض مشوب بالرهبة. . . ما أنا بقارىء. . .

ويـأتيه الأمر. . . اقرأ. . . اقرأ باسم ربك الذي خلق. . . .

وينطلق محمد من الغار مسرعاً. . . ترتجف فرائصه لما سمع. . . وقد خشي أن يكون قد أصابه شيء، ووصل إلى بيته وهو على هذه الصورة من الدهشة والذعر.

وتلقته خديجة بحنانها وعطفها. . . وقد أوى إلى فراشه وهو يقول دثروني

زملوني. . . . وتدثره خديجة وتـزمله، وتجلس إلى جانبـه مستفسرة مستوضحة. . .

ويحدثها بما سمع. . . ويحدثها بالذي يخشى منه. . . إنه يخشى أن يكون قد أصابه شيء. . .

وتغمره خديجة بحنان عظيم. . . وتقول له بثقة التي تعرف زوجها وتثق به ثقة لا تحد: «الله يرعانا يا أبا القاسم. . . أبشر يابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. . . . والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إذن لقد كانت خديجة تتوقع أن يكون محمد النبي المنتظر الذي يتحدث عنه الناس والذي تحدث عنه كثيراً أمامها ابن عمها: ورقة بن نوفل.
لقد كانت خديجة تتوقع. . . . ولعلها كانت تنتظر. . . .

وقد جاءت الساعة التي توقعتها واللحظة التي انتظرتها. . . .
كانت خديجة وليلة القدر على موعد. . . . وقد حان الموعد ودقت ساعتـه. . . .

ونام محمد على كلمات خديجة الحانية. . . وانسلت خديجة من بيتها مسرعة إلى حيث ابن عمها ورقة فقد كان الرجل عالماً بالكتب السماوية، دارساً لها. . . فأقبلت عليه تحدثه بالذي سمعته من زوجها محمد فانتبهت كل حاسة في هذا الرجل العجوز، وانطلق يقول لخديجة في حماس وشوق:

«قدوسٌ . . . . قدوس. . . . والذي نفس ورقة بيده لَئن صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت». . . .

وشاعت الفرحة في نفس خديجة. . . . لقد كانت بالأمس زوجة الأمين

مثال شباب قريش خلقاً وفضلاً وأصبحت اليوم زوجة نبي هذه الأمة. . . .

فأي فضل وأي شرف حازته هذه السيدة الجليلة. . . .

لقد كانت خديجة أهلاً لهذا الفضل وذلك الشرف. . . .

وأسرعت عائدة إلى بيتها، وجلست إلى جانب زوجها تنظر إليه معجبة به عازمة على الوقوف إلى جانبه حتى يبلغ الرسالة السماوية ويؤدي الأمانة الإلهية. . . .

ولم يطل النوم بمحمد، فإن الله أعده لمهمة لا يصلح معها النوم. . . . وأنزل عليه وحيه: ﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر. . . ﴾.

وتطلع محمد إلى خديجة التي تلقته بحنانها وعطفها وإعجابها وتأييدها وتصديقها. . . فقال لها: انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة. . . .».

انتهى عهد النوم وجاء وقت الجد والعمل. . . .

وحدثت خديجة زوجها بما قاله لها ورقة. . . وانطلقا معاً إليه، فلما رأى ورقة محمداً مقبلاً بادره بقوله: «والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة. . . ولتكذَّبنّ، ولتؤذَينّ، ولتُخرَجَنّ، ولتُقاتلن ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه».

ولما سمع محمد من ورقة ما سمع قال مستغرباً: «أو مخرجيَّ هم»؟

قال ورقة: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. . .»

وسمعت خديجة كل ذلك من ابن عمها، سمعت أن الرسول سوف يلقى من قومه عنتاً، سوف يكذبونه وسوف يؤذونه وسوف يخرجونه من مكة. . . موطنه وموطنها، وسوف يشهرون في وجهه السلاح ويقاتلونه به. . . . سوف يكون جهاداً كبيراً. . . .

سمعت خديجة كل ذلك فما زادها إلا ثقة بزوجها وعزماً على نصرته

والوقوف إلى جانبه وكانت خديجة أول من صدق محمداً وآمـن بمـا جاء به.

وأصبحت خديجة أول رقم في الإسلام.

لم يسبقها إليه رجل أو امرأة... لم يسبقها إليه صغير أو كبير....

وسجلت خديجة بإيمانها صفحة فخـار للمرأة أن كـانت أَوَّلَ المسلمين....

* * *

وسارت الدعوة الإسلامية بقدر الله... وشاء الله أن يلقى رسوله والمؤمنون عنتاً وضيقاً من قريش، أُوذي المؤمنون بأموالهم وأنفسهم... فما وهنوا وما رأى المشركون منهم ضعفاً.... بل صبروا لما أصابهم في سبيل الله... يستوي في ذلك الرجال والنساء.

وكانت خديجة خير معين لزوجها ولمن أسلم من الرجال والنساء... آست رسول الله بمالها، وآزرته بحنانها، وأعانته بصبرها وجلدها....

واشتدت قريش في أذاها... وافتنت في ذلك الأذى وذهبت فيه كل مذهب... فما زاد ذلك الدعوة إلا قوة والمسلمين إلا ثباتاً... وازداد الإقبال على الإسلام يوماً بعد يوم حتى خشيت قريش على كيانها، وخاف السادة فيها على مراكزهم، فتنادوا للحزم والحسم، وكتبوا بينهم وثيقة قاطعوا فيها بني هاشم وبني المطلب وكل من وازرهم وسار في ركب محمد ودعوته... وجعلوا مقاطعتهم شاملة...، فحرموا على الناس أن يبيعوهم أو يبتاعوا منهم.... وحرموا على الناس أن يزوجوهم أو يتزوجوا منهم... فانحاز المسلمون وبنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبي طالب.... وأجهدتهم المقاطعة التي استمرت ثلاثاً من السنين حتى أكلوا ورق الشجر!

ودخلت خديجة مع زوجها شعب أبي طالب... وصبرت على ما لاقت من عنت المقاطعة، فما وهنت لما أصابها، وما اشتكت مما تلقاه فيها...

وأصابها بسبب تلك المقاطعة الهزال. . . فقد كانت امرأة غنية مرفهة مخدومة. . . فأعانها إيمانها العظيم على الصبر الطويل. . . ولكنها خرجت من الشعب وقد أنهكها التعب. . . . فما لبثت أن ماتت وقد أدت ما عليها لدعوة الله ووفت لزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . .

وكان وقع وفاتها على رسول الله أليماً. . . . حزن لفراقها أشد ما يكون الحزن وأبلغه حتى سمى العام الذي ماتت فيه عام الحزن.

رسول الله. . . خير البشر على الإطلاق يكرم زوجته ويرفعها إلى أسمى الدرجات. . . ويدعو ذلك العام الذي فارقته فيه عام الحزن. . .

هذه هي المنازل التي تكرَّم فيها المرأة، وهذه هي الميادين التي تحقق فيها ذاتها، وهذه هي المواقف التي تقفها فتُعرف فيها وتُذكر. . . .

هذه هي خديجة. . . المثال. . . . والقدوة. . . . والذكر الحميد.

فأي امرأة كانت هذه السيدة الجليلة. . . .
وأي مجاهدة كانت في سبيل الله. . . .
وأي مؤازرة كانت لرسول الله. . . .

رحم الله خديجة بنت خويلد. . . ورحم الله كل امرأة مسلمة جعلت منها قدوتها ومثالها العظيم. . . .

* * *

كان لخديجة ـ رضوان الله عليها ـ في نفس الرسول أثر لا يمحى، ظل يذكرها ويكرم سيرتها حتى توفاه الله وانتقل إلى الرفيق الأعلى. . .

قالت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ : «ما غرتُ من امرأة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما غرت من خديجة، لما كنت أسمع من ذكره لها. . .»

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائم الذكر لها. . . يذكرها بالثناء والحمد والإكبار والحب حتى غارت منها زوجته الأثيرة عائشة. . . . والغيرة طبيعة في النساء. . .

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول عن خديجة: «لقد رزقت حبها».

وكان يقول: «إني لأحب حبيبها».

وكان إذا سمع صوت أختها هالة بنت خويلد في بيته يهش ويقول: «اللهم هالة!».

إنه يأنس لصوتها إذ يشبه صوت خديجة.

وإنه ليهش للقائها إذ كانت أخت خديجة.

لهذا كانت غيرة عائشة منها شديدة حتى إنها قالت له ذات يوم وقد أغضبها ذكره لها وتأكيده على حبها وتقديرها:

«ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر الأول، أبدلك الله خيراً منها».

ويتغير وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما يسمع، ويقول مغضباً لعائشة:

«والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»

وسكتت عائشة نادمة على ما فرط منها في حق خديجة. . .

لقد كانت خديجة عظيمة في مواقفها كلها.

أليست هذه السيدة الجليلة التي أسرعت وصدقت وآمنت جديرة بالحب والتقدير؟

أليست هذه السيدة العظيمة التي سارعت وبذلت وأنفقت مالها في سبيل الله جديرة بالثناء العاطر؟

ألا يكفيها منزلة أن كانت أول المسلمين؟

لهذا أحبها رسول الله...

ولهذا كان حبها واجباً على المسلمين...

الزهراء فاطمة بنت محمد ﷺ

الزهراء...

هي بنت مَن؟

هي زوج مَن؟

هي أُمُّ مَن؟

إنها ابنة سيد المرسلين... سيد ولد آدم... محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ومن كان أبوها رسول الله فقد حازت الفخار كله ونالت من المجد ذروته....

وعلى هذا الشرف الباذخ الذي دونه كل شرف فقد أكرم الله الزهراء بفيض آخر من الشرف والفخار...

فهي أيضاً ابنة خديجة أول النساء إيماناً بالإسلام.

وهي أيضاً زوج علي بن أبي طالب الذي كرمه الله بالإسلام صبياً، فما انحنى لوثن ولا سجد لصنم... وهو المجاهد مع النبي منذ نعومة أظفاره... وهو خليفة المسلمين الرابع رضي الله عنه وأرضاه وهي أيضاً أم الحسنين... سيدا شباب أهل الجنة...

هذه هي الزهراء في جلال شرفها وعظيم قدرها وجليل منزلتها. . . .

* * *

كان عمرها خمس سنوات عندما شرف الله أباها بالنبوة الخاتمة. . . وقد تفتحت مداركها على أبيها وهو يعاني من صد قريش وتعنت سادتها واعتداء سفهائها على شخصه الكريم، كانت ترى ما يلقاه أباها من عنت، فتأسى لذلك، وتحاول أن تكون عوناً له على أعدائه. . . ولكن أي عون كان يمكن أن تقدم فتاة صغيرة تحبو نحو العاشرة من عمرها. . . .

كان أقسى ما رأته فاطمة ذلك المشهد الذي أحزنها الحزن كله. . أباها يصلي في ساحة الكعبة فيسجد، فيأتي سفيه مكة عقبة بن أبي معيط فيلقي على رأسه بسلي جزور بين قهقهات قريش وضحكاتها، ويبقى رسول الله ساجداً إلى أن تتقدم فاطمة وتُلقي عنه هذا القذر الذي ألقاه عليه عفن العقل الجاهلي البغيض. . .

وينهض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويلتفت إلى قريش، وينظر إليهم نظرة ثاقبة صارمة، ثم يدعو عليهم: «اللهم عليك الملأ من قريش. . . . اللهم عليك أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأُبيّ بن خلف».

ويخنس الملأ من قريش. . . خوفاً من دعاء محمد. . . . فهم يعرفونه صادقاً. . . وما جربوا عليه كذباً قط فهم في قرارة أنفسهم يخشون دعوته ويخافون عاقبتها. . . .

ويشاء الله أن تطوى الأعوام، وتدور الأيام، وتقع معركة بدر وترى فاطمة بأم عينها هؤلاء النفر مجدلين صرعى حول ماء بدر. . . . أصابتهم دعوة الرسول

وجنوا عاقبة ما قدموا من شر وسوء وجهالة.

* * *

كانت فاطمة في ميدان الدعوة منذ نعومة أظفارها... تواكبها خطوة خطوة، وتساهم فيها بالقدر الذي يؤهلها له سنها وبالقدر الذي تؤهلها له أنوثتها وبالقدر الذي يؤهله لها موقعها في بيت النبوة.

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محباً لفاطمة، شديد الحب لها، فقد كانت صغرى بناته، وبقيت رفيقة أمها وأبيها إذ فارقت أخواتها الثلاث منزل الأسرة إلى منازل الزوجية...

وكان كلما أراد أن يتمثل بأحب الناس إليه تمتل بذكرها، وكان كلما أراد أن يضرب لقريش مثلاً بأحب الناس إليه ذكر فاطمة بنت محمد....

فعندما أنزل الله عليه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين...﴾ جمع قريشاً وقال لهم: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً....

يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً.... يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً».

نعم: يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً....

ما أعظم هذه الكلمة وما أروع دلالتها... ولا شك أن فاطمة قد سمعتها.... فوقعت من نفسها موقعاً عظيماً....

وعندما سرقت المرأة المخزومية، وحاولت قريش أن تستشفع لها عند رسول الله بأسامة بن زيد غضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقام في

القوم خطيباً يؤنبهم على تصرفهم. . . . وكان مما قاله في خطبته. . . . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. . . .

ومرة أخرى. . . . لو أن فاطمة بنت محمد. . . .

لو كان السارق أعز الناس إلى قلب الرسول ما توانى أن ينفذ فيه حكم الله. . . .

هذه هي عدالة الإسلام المطلقة. . . . تنفذ أحكامها على الشريف مثلما تنفذ على السوقة سواء بسواء. . . .

وهل هناك من هو أعلى شرفاً من فاطمة بنت محمد؟ ومع ذلك لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. . . .

يا لها من عدالة سامية. . . . ويا له من شرف لفاطمة بنت محمد. . . .

* * *

عاشت فاطمة في بيت النبوة. . . .

فكانت تربيتها تربية قرآنية، فتمثلت في شخصيتها كل المثل السامية التي جاء بها الإسلام. . .

كانت ترى وتسمع وتحاول أن تشارك في الأحداث الجسام على صغر سنها فكان لها في حياة أبيها مكانة سامية. . . جد سامية حتى قال عنها ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ: «إنما فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما آذاها، ويريبني ما رابها».

وقال في حقها أيضاً «خير نساء العالمين أربع: مريم وآسية وخديجة وفاطمة».

إن فاطمة واحدة من أربع هن خير نساء العالمين.

ولها ميزة في هذا فهي أيضاً ابنة واحدة من هؤلاء الأربع اللواتي هن خير نساء العالمين. . . .

شرف باذخ متطاول لا يرقى إليه شرف ولا يدانيه شرف مهما علا. . . .

* * *

وتتوالى أحداث مكة، ويشتد الأذى بالمسلمين، وتحاول قريش جهدها لتطفىء نور هذا الدين. . . . ويتوالى فشل قريش، فتزداد أذى للمسلمين، ويأذن الله لرسوله بالهجرة. . . . فيترك أحب بلاد الله إليه وينزل دار الهجرة. . . . المدينة المنورة. . . .

وتتخلف فاطمة وأختها أم كلثوم في بيت النبوة بمكة، ينتظرن أمر رسول الله لهن بالهجرة. . . . ولم يلبث الأمر أن جاءهن، فيتجهزن، ويغادرن منزلهن بعيون دامعة وقلوب آسية. . . ويعجبن لقسوة قريش على أبنائها ممن اختاروا طريق الهداية. . . . ولعل هذا التعجب أذهلهن عندما لحق بهن واحد من سفهاء مكة يدعى الحويرث بن نقيذ فنخس بهن بعيرهن، فهوين على الأرض وقد شاهدن بأعينهن انحطاط الجاهلية وتمادي الكفر والضلال. . . .

وتصل فاطمة إلى المدينة مجهدة، تشكو مما أصابها من اعتداء سفيه قريش، وتشكو من وعثاء الطريق، ويشتد غضب رسول الله على من آذى ابنتيه، فيهدر دمه. . . .

ولم يكن اعتداء قريش على فاطمة حادثاً فريداً، فقد تكرر هذا الحادث أكثر من مرة ومع أكثر من امرأة. . . .

اعتدت قريش على سمية بنت خباط. . . . وقتلها أبو الجهل والضلال دون حياء أو خجل. . . .

واعتدت قريش على أم سلمة، وفرقت قسوتها بينها وبين زوجها، بل إن قريشاً بقلوبها الصخرية قد شقت طفل أم سلمة شقين على مرأى منها ومسمع!

واعتدت قريش على زينب بنت محمد عندما عزمت على الهجرة. . . . وآذتها في حملها. . . . وكان ذلك سبب مرضها ثم موتها بعدُ.

وقد حاول بعض المدافعين عن جاهلية قريش أن يصفها بصفات هي أشد ما تكون عنها بعداً، ومنها شهامتها وترفعها عن الاعتداء على النساء. . . . وقد كانت قريش الكفر أشد ما تكون بعداً عن الشهامة والمروءة في عدائها لهذا الدين برجاله ونسائه. . . . وكذلك الجاهلية في كل عصر. . . لا ترقب في مؤمن ولا مؤمنة إلاً ولاذمة ولا تراعي شرفاً في العداوة ولا مروءة في المعاملة.

إن الجاهلية هي الجاهلية. . . أكانت جاهلية قريش أم جاهلية اليهود والنصارى أم جاهلية الحضارة الحديثة. . . إن للجاهلية سمات وصفات لم تختلف على مرّ العصور. . . . وستبقى الجاهلية هي الجاهلية مهما زينوها للناس ومهما أسبغوا عليها من زيف الصفات!

وتعيش فاطمة في كنف أبيها النبي، وتسعد فاطمة برعاية شؤون البيت النبوي. . . . فقد كانت فاطمة سيدة البيت النبوي تديره وترعى شؤونه، وقد وصل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ولما يتزوج من عائشة، فكانت فاطمة راعية بيته ومدبرة شؤونه فيه. . . .

وكبرت فاطمة. . . . فقاربت الثامنة عشرة عندما دخلت عائشة بيت النبوة؛ ولا بد أن فاطمة قد شعرت أن رعاية البيت النبوي لا بد أن تؤول إلى السيدة الشابة القادمة من بيت الصديق. . . . ولا بد أن ذلك أدخل على نفسها شيئاً من الحزن ذلك لأنها كانت فخورة بقيامها على خدمة أبيها ورعاية شؤون البيت النبوي العظيم. . . .

وأقبل الخاطبون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلبون فاطمة. . . تقدم إليها أبو بكر وتقدم عمر، ولكن رسول الله ردهم رداً لطيفاً. . . . وتحدث الناس بأمر فاطمة ومن تقدم لخطبتها. . . . وتحدث الناس إلى علي بن أبي

طالب وشجعوه على التقدم لخطبة فاطمة. . . .

قال ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : بعد أبي بكر وعمر؟

وأخذ الناس يذكرون له قربه من النبي وقرابته له حتى تشجع وذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاطباً. . . .

وعندما ضمه مجلس النبي غلبه الحياء فلم يذكر حاجته.

وأدرك رسول الله ما ينتاب علياً من حرج فبادره بقوله: ما حاجة ابن أبي طالب؟

قال علي: ذكرت فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

قال رسول الله: مرحباً وأهلاً. . . .

مرحباً وأهلاً. . . كانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب علي. . . . فلقد فهم منها، وكذلك فهم أصحابه، أن رسول الله يرحب به زوجاً لابنته وواحداً من الأسرة والأهل. . . . وهل كان علي إلا واحداً من أسرة النبي وأهله منذ صغره حتى يومه هذا الذي جاء به خاطباً فاطمة؟

* * *

كانت تلك مقدمة الخطبة، عرف علي أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرحب به زوجاً لابنته فاطمة، فلما كان بعد أيام ذهب إلى رسول الله وخطب إليه فاطمة. . . .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ما تصدقها؟

قال: ما عندي ما أصدقها!

قال عليه السلام: فأين درعك الحطمية التي كنت منحتك؟

قال: هي عندي.

قال سيد المرسلين: أصدقها إياها. . . .

ولنا وقفات عند هذا المشهد الرائع والموقف الفذ. . . .

علي بن أبي طالب جاء خاطباً بنت نبي الله دون أن يفكر بمهر يقدمه لها. . . ذلك لأنه لم يكن يظن أن مسألة المهر سوف تكون عقبة في طريق الزواج، فالزواج في دين الإسلام مهره الدين والخلق، وليس المهر المادي إلا رمزاً يمر خلاله الرباط الزوجي المقدس: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»

وماذا قال رسول الله لعلي عندما سمعه يقول: ما عندي ما أصدقها؟

هل رده حتى يؤمن مهراً. . . .

هل أنَّبه لتقدمه للخطبة وهو فقير لا يملك من حطام الدنيا قطميراً[1]!

لم يحصل هذا ولا ذاك. . . . بل سأله الرسول بلطف أبوي: وأين درعك الحطمية التي كنت منحتك؟

يسأله رسول الله عن درع كان منحه إياها. . . .

ولما رد علي بأنها موجودة أمره الرسول أن يقدمها مهراً لفاطمة.

وهكذا قدم علي مهر فاطمة درعاً هي في الأصل هدية من أبيها.

بهذه البساطة وبهذا اليسر كانت تجري أمور الزواج في عهد رسول الله. . . . وكانت بناته وزوجاته وهن أكرم نساء العالمين مثالاً لذلك. . . .

وبقيت البساطة في الزواج الإسلامي سارية حتى عقدها أولئك الذين أخذوا يبالغون في المهور حتى غدت العقبة الكؤود في وجه إحصان المسلمين والمسلمات. . . .

(١) القطمير في الأصل القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها ويطلق على الشيء الهين اليسير.

وآلت الدرع الحطمية إلى فاطمة، وهي في الأصل هدية أبيها لابن عمها علي . . . . وسوف تعود من بعد إلى علي، هدية أو عارية من فاطمة، ليقاتل بها أعداء الله، وإلا فماذا تفعل فاطمة بدرع لا يحتاجها إلا الرجال في ميادين القتال؟

وعندما جاء موعد البناء بفاطمة باع علي بعيره وبعض متاعه بأربعمائة وثمانين درهماً استعداداً لهذا الحدث العظيم، ولما أُبلغ الرسول بما فعل قال له: اجعل ثلثين في الطيب وثلثاً في المتاع. . . .

والرسول كان شديد الحب للطيب، فهو على طيب رائحته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحب الطيب لنفسه ويحبه للمسلمين. . . كان ـ عليه السلام ـ شديد الحرص على أن يشيع في أمته طيب الرائحة بالإضافة إلى طيب السيرة والذكر. . . من هنا أوصى علياً أن يكثر يوم عرسه من الطيب.

وقال عليه السلام لعلي أيضاً: يا علي. . . . إنه لا بد للعروس من وليمة.

وهنا ينهض المجتمع المتكافل بجزء من تكاليف العرس، فقال سعد ـ أحد الأنصار ـ : عندي كبش. . . . ونهض جماعة من الأنصار فأحضروا آصعاً من ذرة. . . . وأقاموا وليمة علي وفاطمة. . . .

طيب وروائح زكية تشيع في يوم الفرح والسرور.

ووليمة يجتمع عليها الناس ليشاركوا العروسين أفراحهما.

هذا هو جو العرس الإسلامي. . . . فلماذا أضعناه. . . . أو أضاعه كثير منا؟

وجهز رسول الله ابنته بسرير ووسادة من أدم حشوها ليف وتَوْر[1] من أَدَم وقربة. . . .

(١) التَّوْر: إناء للشرب، والأدم: الجلد.

وجاء القوم ببطحاء[1] فطرحوها في البيت.

ولما كانت ليلة البناء قال رسول الله لعلي: لا تحدث شيئاً حتى تلقاني.

وذهب رسول الله إلى العروسين، فدعا بإناء فتوضأ فيه ثم أفرغه على عليّ ثم قال: «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما».

ودعا رسول الله ابنته فاطمة، فجاءت تمشي على استحياء.... تعثر في ثوبها من شدة الحياء....

ونضح رسول الله عليها من ذلك الماء... ودعا لها.... ثم قال: «يا فاطمة، والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلي».

هذا رسول الله الأب الإنسان، يبارك زواج ابنته، ويؤكد لها أنه اجتهد في الاختيار لها، وأنه اختار لها خير أهله....

لقد كان زواج علي وفاطمة حدثاً تاريخياً عظيماً.... فما من زواج أحدث في التاريخ من أثر مثلما أحدثه هذا الزواج... وصفحات التاريخ الإسلامي مليئة بالآثار التي انتشرت في الأرض يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً.... وامتد هذا الأثر إلى أن تكونت باسم فاطمة دولة حكمت بلاداً شاسعة قروناً طوالا....

كان هذا البيت الذي ذهب تأثيره في التاريخ بعيداً بيتاً بسيطاً، عاش الزوجان ولم يكن في بيتهما من المتاع سوى فراش من أدم وسقاء وجرتين، كما جاء في إحدى الروايات، وكان الزوجان يباشران شؤون منزلهما بأنفسهما، وكان ذلك يرهقهما، وعندما علما أن سبياً جاء إلى المدينة قال علي لفاطمة: والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه....

قالت فاطمة: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداي....

---

(١) البطحاء: خليط من الرمل والحصى الصغير تفرش به الأرض.

وذهبت فاطمة لتطلب من أبيها خادماً يخدمها وزوجها.

وصلت فاطمة الى بيت أبيها النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وجلست إلى جانبه ولم تتكلم.

قال لها رسول الله: ما جاء بك يا بنية؟

واستحيت فاطمة أن تسأله الذي جاءت من أجله، قالت: جئت لأسلم عليك.

وعادت فاطمة إلى بيتها.

قال لها زوجها: ما فعلت؟

قالت : استحييت أن أسأله.

ونهض علي وأخذ بيد فاطمة وذهبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

قال علي: والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وهذه فاطمة قد طحنت حتى مجلت يداها، وقد أتى الله بسبي فأخدمنا.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم. . . .

وعاد علي وعادت فاطمة ولم يعترضا ولم يحزنا، فقد علما أن رسول الله حريص على رعيته عادل في تصرفه. . . .

وعلم رسول الله أن ابنته وابن عمه في حاجة إلى ما يخفف عنهما عناءهما، فلحق بهما حتى دخل عليهما البيت وقال لهما برفق وحنان دافق: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟

قالا: بلى

فقال: «كلمات علمنيهن جبريل، تسبحان في دُبُر كل صلاة عشراً

وتحمدان عشراً وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين».

هذا ما أعطى محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ابنته وزوجها. . . . أعطاهما حبلاً موصولاً بالله، إذا قاما إلى الصلاة أمسكا به وإذا أويا إلى الفراش تشبثا بعراه. . . .

ورضي رسول الله عندما رأى علامات السرور والارتياح في وجه ابنته وزوجها ابن عمه. . . . وانصرف ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عندهما مطمئناً إلى سعادة البيت الذي يحبه. . . . ونام عليّ ونامت فاطمة كلما سحبا قطيفتهما فغطيا رأسيهما تكشفت أقدامهما، وكلما غطيا أقدامهما تكشف رأساهما. . . ناما وهما يسبحان الله ويحمدانه ويكبرانه، فيغني ذلك نفسيهما عن طعام الدنيا وعن مغرياتها. . . .

وخيمت السعادة على بيت فاطمة، فولدت لعلي الحسن والحسين، وولدت له أم كلثوم وزينب

وفرح الأبوان بالأبناء والبنات كما فرح بهما رسول الله، وكانا وكانتا قرة عين للبيت النبوي الكريم. . . .

ومضت الأيام تحمل بشائر النصر للدعوة الإسلامية، وتوالت الفتوحات حتى أتم الله للمسلمين فتح مكة، وبفتحها دانت الجزيرة العربية للإسلام. . . .

وكانت فاطمة فرحة بهذه الانتصارات، فما إن تسمع بواحد منها حتى تهرع إلى بيت أبيها تهنئه، فيسر عليه السلام بقدوم ابنته، فيتلقاها بأحسن ما يتلقى أب ابنته، ويداعب ابناءها ويظهر لهم من الود والعطف ما لا مزيد عليه. . . .

وذات يوم زارت فاطمة أباها وكان بينهما حديث أسره الأب لابنته. . .

وهذه عائشة أم المؤمنين تقص علينا خبر هذا الحديث.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : كنت جالسة عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله، فقال: مرحباً يا بنتي... فأجلسها عن يمينه، فأسر إليها شيئاً فبكت، ثم أسرّ إليها شيئاً فضحكت.

قالت عائشة: ما رأيت ضحكاً أقرب من بكاء... أي شيء أسر لك رسول الله؟

قالت فاطمة: ما كنت لأفشي سر أبي...

قالت عائشة، فلما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألت فاطمة عن ذلك مرة أخرى فقالت: قال لي أبي: إن جبريل كان يأتيني كل عام فيعارضني بالقرآن مرة، وإنه أتاني العام فعارضني مرتين، ولا أظن أجلي إلا قد حضر، ونعم السلف أنا لك، وأنت أسرع أهلي بي لحوقاً.

قالت فاطمة: فبكيت لذلك. ثم قال: ما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة؟

قالت فاطمة: فضحكت لذلك....

وعاشت الزهراء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستة أشهر، وتوفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة وهي ابنة تسع وعشرين سنة....

وما أعرف امرأة نالت من حسن السيرة وطيب الأحدوثة ما نالته فاطمة بنت محمد، وما أعرف امرأة أحدثت في تاريخ الإسلام من أثر مثل الذي أحدثتة فاطمة بنت محمد.

ولقد لهج بذكرها المحدثون والمؤرخون وأصحاب السير والأدباء والشعراء، وأحب أن أختم حديثي عن هذه السيدة العظيمة بأبيات من قصيدة رائعة قالها أمير شعراء الهند محمد إقبال يذكر فيها عظمة فاطمة ومنزلتها:

يقول هذا الشاعر الكبير من قصيدة له بعنوان: فاطمة الزهراء:

نسب المسيح بنى لمريم سيرةً بقيت على طول المدى ذكراها
والمجد يشرق من ثلاث مطالع في مهد فاطمةٍ فما أعلاها
هي بنت مَن؟ هي زوج مَن؟ هي أُمُّ مَن؟ من ذا يُداني في الفَخار أباها؟
هي ومضةٌ من نور عين المصطفى هادي الشعوب إذا تروم هُداها
ولزوج فاطمة بسورة ﴿هل أتى﴾ تاج يفوق الشمس عند ضحاها
أسدٌ بحصن الله يرمي المشكلات بصيقلٍ يمحو سطور دُجاها
في روض فاطمة نما غصنان لم ينجبهما في النيِّرات سواها
فأمير قافلة الجهاد وقطب دا ئرة الوئام والاتحاد ابناها
هي أسوة للأمهات وقدوةٌ يترسمُ الفخر المنير خطاها
لما شكا المحتاج خلف رحابها رقّت لتلك النفس في شكواها
جادت لتنقذه برهن خمارها يا سُحْبَ أين نداك من جَدواها
فمها يرتل آي ربك بينما يدُها تديرُ على الشعير رحاها
لولا وقوفي عند أمر المصطفى وحدود شرعته، ونحن فِداها
لمضيت للتطواف حول ضريحها وغمرتُ بالقبلات طيبَ ثراها.

زينب الكبرى... بنت رسول الله

زينب بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أمها خديجة بنت خويلد، أم المؤمنين.. أول الناس إسلاماً...
زوجها أبو العاص بن الربيع من بني عبد شمس بن عبد مناف.. ابن خالتها هالة بنت خويلد.

وزينب كبرى بنات الرسول، وأوّل مولود في أسرة محمد بن عبد الله...

تزوجها أبو العاص قبل البعثة... فكان نعم الزوج لها كما كانت هي نعم الزوج له...
رفرفت السعادة على بيت زينب، فهي معززة مكرمة عند زوجها وخالتها هالة... وهي أيضاً معززة مكرمة عند والديها.. محمد وخديجة.

وكان من سعادة هاتين الأسرتين.. أسرة محمد وأسرة أبي العاص أن رُزق العروسان بالذكر والأنثى، رزقا بمولود ذكر أسمياه علياً وبمولودة أنثى أسمياها أُمامة...

وسارت حياة زينب تملؤها السعادة، ويحفها السرور... حتى إذا حدث أعظم حادث في تاريخ مكة وبُعث رسول الله محمد بن عبد الله - والد زينب - أخذت حياتها مجرى آخر، فيه من المعاناة والمجاهدة ما ينوء بحمله الرجال..

ولكن زينب واجهت الأحداث وكانت جديرة بأن تكون ابنة محمد سيد الأنبياء وخاتم المرسلين. .

علمت زينب بالذي بُعث به أبوها، وعلمت بذلك مبكراً، فما كان ليخفى عليها أمر مثل هذا وهي تغشى بيت أبيها كل يوم. . لاحظت ما طرأ على البيت من تبدل ومن نشاط. . وعرفت أن أباها قد غدا نبيّ هذه الأمة. . فما تأخرت عن إعلان إيمانها وتصديقها، وكيف لا تسرع إلى الإيمان والتصديق وهي أعرف الناس بأبيها وأخلاقه وسيرته. . وكيف لا تكون سريعة الإيمان والتصديق وهي تحمل في قلبها لأبيها العظيم حباً وتقديراً لا تحمله لأحد من العالمين. . .

وعندما عادت زينب من بيت أبيها النبي ودخلت بيتها كان أول خاطر مرّ بذهنها هو موقف زوجها أبي العاص من الدعوة الجديدة. . هل يؤمن كما آمنت فيبقى الهناء وتبقى السعادة مرفرفة على عشهما أم يذهب مذهب من رفض الدعوة وأنكر على أبيها أن يكون نبياً ورسولاً؟

كانت هذه الأفكار شغلها الشاغل عندما دخل عليها زوجها، فبادرته بالحديث عن أبيها وعما يدعو إليه وأنصت أبو العاص إلى حديثها باهتمام كبير. . وتدفقت زينب تتحدث عن هذا الشرف العظيم الذي ناله أبوها وعن هذا الدين العظيم الذي يدعو إليه، وعندما توقفت عن الحديث لتسمع رد زوجها العزيز. راعها أن تجد زوجها صامتاً لا يرد عليها ولا يعلق بشيء على حديثها، وفي هدوء مشوب بالتردد والخوف سألت زينب زوجها عن موقفه مما يدعو إليه أبوها، ولما فهمت أنه لا يرى أن يؤمن بما يدعو إليه أبوها قالت بثبات: ولكنني آمنت بالذي يدعو إليه أبي. . .

ولم يتكلم أبو العاص بشيء. . . واستدار خارجاً من البيت. . .

كان موقف زينب من الدعوة موقفاً حازماً. . . فرغم حبها لزوجها حباً يملك عليها فؤادها إلا أنها لم تتردد في إيمانها وفي الثبات عليه والتمسك به رغم إعراض زوجها وانصرافه عنه. . .

ومضى رسول الله في دعوته، فأقبل عليها نفر من قريش ووقف في وجهها نفر آخر. . ، وتتابعت الأحداث سراعاً، فكلما ازداد عدد المؤمنين بالدعوة ازداد المعاندون عناداً وازدادوا عداوة وكيدا. . .

ولم يترك هؤلاء المعاندون وسيلة في حرب الدعوة وإيذاء الرسول إلا اتبعوها، وابتدعوا لذلك وسائل أوحاها لهم شدة العداوة والبغضاء لمحمد وما جاء به محمد. . .

اجتمعوا ذات يوم، وتداولوا أمرهم بينهم، فقال قائلهم: إنكم قد فرَّغتم محمداً من همه، فردوا عليه بناته فأشغلوه بهن!

فكرة لا تتفتق إلا عن ذهن شيطان مريد. . .

كانت رقية وأم كلثوم ابنتا رسول الله قد تزوجتا من عتبة وعتيبة ابنا عمه أبي لهب وكانت زينب عند أبي العاص بن الربيع. . .

راقت الفكرة لعتاة مكة، فسعوا في إنفاذها.

ذهبوا إلى أبي لهب وألقوا إليه بالأمر الجلل. . إنهم قد عقدوا العزم على إيذاء محمد في بناته. . . فليطلق ابناه عتبة وعتيبة ابنتي محمد رقية وأم كلثوم!

وفاجأ القوم أبا لهب. . عم رسول الله.

صحيح أنه وقف في وجه ابن أخيه ورفض أن يؤمن بما جاء به، ولكن الأمر الذي يدعونه إليه يخالف القرابة والمروءة. . . وأطرق أبو لهب ولم يجب. . .

وأدرك القوم ما يدور في خلد أبي لهب، فالتجؤوا إلى زوجه أم جميل بنت حرب، تلك التي ترفع لواء العداء لمحمد وما جاء به محمد.

وأقبلت أم جميل على زوجها مؤنبة، فما أسرع ما خضع لتأنيبها وأنساه هذا التأنيب ما كان يحدث به نفسه من صلة الرحم ودواعي المروءة!

واستدعت أم جميل ولديها وقالت لهما: اسمعا ما يقوله لكم السادة من قومكم. . .

قالوا: سمعاً وطاعة. . .

لقد كان لأم جميل على أولادها سطوة كما كان لها على زوجها مثلها.

قال القوم: فارقا ابنتي محمد ونحن نزوجكم أي امرأة من قريش شئتم!

ولم يناقش الزوجان، بل أسرعا إلى زوجتيهما وأمراهما بأن يرحلا إلى أبيهما.

وانتابت قريش فرحة غامرة، فقد حالفها النجاح فيما خططت له، وانصاع ابنا أبي لهب لما رآه السادة الكبار!

وما أسرع ما اندفعوا إلى أبي العاص بن الربيع، فإن الخطة لا تكون محكمة إلا إذا عادت ابنة محمد الثالثة إلى أبيها. . .

قالوا لأبي العاص ابن الربيع: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت.

وما راعهم إلا قول أبي العاص يرد عليهم كيدهم: لا والله إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش!

وانصرف القوم وقد انتكست فرحتهم، فما استطاعوا أن يغروا أبا العاص بما عرضوه عليه، ومع أن الرجل لم يتابع محمداً إلا أنه كان محباً لزوجه ولم ير من المروءة أن يفارقها تبعاً لرأي ارتآه قوم من سفهاء قريش!

وتتابعت الأحداث في مكة.

جهاد وصبر ومعاناة وتحمل للأذى من جانب الرسول ومن آمن بالرسالة وقسوة وظلم وتجبر وكيد من جانب قريش التي أصرت على الكفر وأمعنت في العناد، وتعيش زينب الأحداث كلها، وتشرب مرارتها، فما كانت بالتي ترى أباها يكذَّب، ومن تبعه يعذَّب، وتبيت هانئة في ظل زوج محب عطوف يظلها بحنانه ويحيطها بعنايته.

لقد كانت زينب تقاسي مما يقاسي منه المؤمنون... تناصر أباها بلسانها، وتؤيده بقلبها...

ويأتي اليوم الفاصل في مكة.

قريش تحاول قتل رسول الله.

والله يأمر رسوله بالهجرة إلى المدينة.

ويتم أمر الله، ويرد كيد قريش إلى نحرها.

وفي المدينة تبدأ الدعوة في الصعود، وتخطو أولى خطواتها نحو النصر المبين.

وتلتفت زينب حولها فلا تجد أمها التي انتقلت إلى الرفيق الأعلى، ولا تجد أباها الذي هاجر إلى المدينة، ولا تجد أخواتها اللاتي تبعن الوالد إلى مهجره.

كان ذلك على قلبها قاسياً أليماً... ولكن الذي خفف من تلك القسوة وذلك الألم ما كانت تسمعه بين الحين والآخر عن انتشار الدعوة وانتصارها... وكانت تتمنى في نفسها لو أن زوجها آمن مثلها وانطلق بها مهاجراً إلى المدينة...

ولكن أبا العاص استمر على موقفه لا يؤمن ولا يعادي، وهو في الوقت نفسه باراً بزوجه محباً لها، لا يدع أحداً مهما بلغت مكانته أن يمسها بسوء.

وتمرُّ الأيام مليئة بالأحداث، فقد كانت جبهة الإيمان منظمة تزيدها الأحداث نظاماً، ولقد كانت جبهة الكفر مفككة تزيدها الأحداث تفككاً...

كان لا بد لهذا الصراع بين الكفر والإيمان أن يحسم، فلم تعد الجزيرة العربية تتسع لهذين التيارين في وقت معاً.

ويقع الصدام الأكبر في بدر...

وتتداعى جبهة الكفر للنزال، فقد ظنت أنها قادرة على حسم الصراع

لصالحها، فقد كانت ترى المسلمين في قلة من العَدد وفي يسير من العُدد، وكانت لا ترى النصر إلا في كثرة العدد ووفرة العُدد.

وينضم للجيش الخارج لقتال محمد ني بدر كل ذي شأن في مكة... ويخرج مع الخارجين إلى بدر أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت محمد...

ويجثم على صدر زينب هم ثقيل.

هذا أبوها وأعز الناس عليها يقود المؤمنين للقاء قريش الكفر والطغيان.

وهذا زوجها ينضم إلى قريش في حربها للإيمان وأهله.

معركة تود زينب أن لا تقع.. فهي ترى أنها معركة سوف تصيبها بشظاياها أياً كان المنتصر فيها...

ويذهب الرسل بين بدر ومكة ويعودون، وفي كل مرة يحملون معهم أنباء الاستعداد القرشي الهائل الذي سوف يقضي على المسلمين في أول لقاء...

ما تحدث أحد من هؤلاء الرسل عن هزيمة قريش... فكلهم يتحدث عن النصر القادم وعن الغنائم الوفيرة وعن الافراح التي سوف تقام بعد هذا النصر الكبير.

ولقد كانت هذه الأنباء تثقل فؤاد زينب، فهي ببنوتها للنبي الكريم تود أن يكون النصر حليفه، وهي في عضويتها لجبهة الإيمان تتلهف أن تكون عاقبتهم نصراً مؤزراً.

وسرعان ما تغير اتجاه الريح وأخذت أنباء المعركة تتسرب إلى من في مكة... ولم يبق في مكة إلا النساء والولدان والزمنى...

ويتحدث الناس عما وقع في بدر... لقد انتصر محمد وعقيدته على قريش وضلالها، لقد وقع سادة قريش في بدر بين قتيل وأسير وطريد!

ويعود الناجون من ملحمةِ بدر إلى مكة... وتخرج زينب باحثة عن

زوجها أبي العاص. . . ويقفز قلبها إلى صدرها رعباً عندما لم تجده من الناجين.

وتسرع إلى هؤلاء الذين حملتهم أرجلهم من بدر إلى مكة فتسألهم عن زوجها، فيخبرونها أنه وقع أسيراً في قبضة والدها وسيق مع الأسارى إلى المدينة. . .

ويطمئن قلب زينب على زوجها، فإنه الآن في كنف أبيها، ولا بد أن يلقى الرعاية والعطف، إن لم يكن لمكانته من قريش، فلمكانتها هي من قلب أبيها العظيم.

وما إن مضى على هزيمة قريش في مكة أيام حتى أخذت تفكر في فك هؤلاء الأسرى من بنيها، ولقد سارع كل من له أسير إلى إرسال الفدية لفكه.

وهمَّ آل أبي العاص أن يبعثوا بفداء ولدهم إلى المدينة، ولكن زينب لم تدعهم يفعلون ذلك فقد أعدت هي فداء زوجها. . . وفكت قلادة من عنقها كانت أمها خديجة قد أهدتها إليها يوم زفافها، وسلمتها لأخي زوجها ليحملها إلى المدينة ويقدمها لأبيها لكي يفك لها أسيرها العزيز. . .

وتقدم عمرو بن الربيع إلى رسول الله ماداً يده بصرة وهو يقول: بعثتني زينب بنت محمد بهذا في فداء زوجها أخي أبي العاص بن الربيع.

وتناول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عمرو تلك الصرة. . وفتحها، فإذا فيها قلادة خديجة!

لقد ذكرته هذه القلادة أعز الناس على قلبه زوجته وابنته، فرقَّ قلبه رقة شديدة، وقال لمن حوله: هذه قلادة خديجة أرسلت بها زينب في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع، فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا. . .

ورد القوم بلسان واحد: قد فعلنا يا رسول الله.

حدث كل ذلك وأبو العاص يرى ويسمع. . وقد حفر هذا الحادث في قلبه أثراً سوف يكون له ما بعده. . .

وطلب رسول الله من أبي العاص أن يدنو منه. . . ففعل، وأسر الرسول له أمراً فوافق عليه. . وعندما ابتعد أبو العاص متوجهاً إلى مكة، التفت إليه رسول الله وقال لمن حضره من المسلمين: «والله ماذممناه صهراً».

* * *

ووصل أبو العاص إلى مكة، وتوجه إلى بيته، كان يود لو عاد إلى مكة بقلبه، ولكنه فقد قلبه عندما أخذ عليه الرسول عهداً ليتركن زينب تهاجر بدينها إلى المدينة، فقد فرق الإسلام بينها وبينه. . .

لم تعد زينب المسلمة المؤمنة تصلح زوجاً لأبي العاص المشرك. . . لم تعد تصلح له على ما بينهما من محبة، وعلى ما بينهما من قرابة. . . لقد فرق الإسلام بينها وبين زوجها. . . لقد كرم الله المرأة المسلمة وسما بها فأبى أن تكون زوجة لغير رجل مسلم. . .

ودخل أبو العاص على زوجه بوجه غير الوجه الذي يجب أن يدخل به زوج نجا من الأسر وعاد إلى من يحب. . .

ورحبت به زينب، وانهالت عليه بالكلمات الجميلة مهنئة بالإياب والسلامة. . ، ولما لم تجد تجاوباً منه تساءلت عن سر ذلك. . . وهنا ألقى أبو العاص إليها النبأ. . . سوف تهاجرين بعد أيام إلى أبيك بالمدينة.

ـ وأنت يا بن الخالة العزيز.

ويصمت أبو الربيع.

ولم تصدق زينب أن زوجها سوف يدعها تهاجر دونه. . . ولكنها رأت في وجهه ما أقنعها أنه سوف يتركها تهاجر بإيمانها وسوف يتخلف هو بشركه في مكة. . .

لقد عرفت منه أن زيد بن حارثة سوف يقدم من المدينة حتى يدنو من مكة، فينتظر في مكانٍ يقال له «بطن يأجج» حتى يصطحبها معه...

وعندما حل اليوم المضروب طلب أبو العاص من أخيه كنانة أن يوصلها إلى «بطن يأجج» حيث ينتظرها زيد بن حارثة...

كانت زينب حاملًا في شهرها الرابع... لهذا جهزها زوجها وأمن لها الراحة في هودجها...

وخرج بها كنانة من مكة نهاراً.. فرآه نفر من سفهاء مكة، فأبوا أن يتركوا بنت محمد تخرج مهاجرة على أعين الناس، فقد اعتبروا ذلك تحدياً لمشاعرهم وإساءة لمركزهم... فأسرعوا إلى أسلحتهم وانطلقوا خلف زينب يريدون أن يمنعوها من الهجرة إلى المدينة...

ولحق نفر من سفهاء مكة ركب زينب... وطلبوا من كنانة بن الربيع أن يعود بها إلى منزلها، ويأبى كنانة أن ينصاع لطلبهم، فيتقدم أشقى القوم «هبار بن الأسود» فَيُروعها برمحه، فتسقط عن بعيرها فوق صخرة، وتطرح جنينها وتنزف دماؤها...

وعندما رأى كنانة ما فعلته سفاهة قريش بزينب برك على الأرض ونثر سهامه، وقال لهؤلاء الأنذال منذراً متوعداً: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً.

وتراجع القوم عنه، فقد رأوا منه إصراراً وتصميماً على الدفاع عن زينب...

وتقدم منه أبو سفيان بن حرب وقال له: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك...

واستمع كنانة إلى أبي سفيان، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من

محمد، فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلٍ أصابنا، وأن ذلك ضعف منا ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة، وما لنا من ثؤرة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسُلَّها سراً وألحقها بأبيها.

ونظر كنانة إلى زينب فرآها تنزف، فرأى أن من الخير أن يعود بها إلى منزلها حيث تلقى العناية، فإذا ما برئت من نزيفها عاد وأوصلها إلى من يأخذها إلى مكة.

ونظر كنانة إلى أبي سفيان ومن معه وأنشد مفتخراً:

عجبت لهبارٍ وأوباش قومه   يريدون إخفاري ببنت محمد
ولست أُبالي، ما حييت، عديدهم   وما استعجمت قبضا يدي بالمهند

وعاد كنانة بزينب إلى بيتها حيث قام نساء آل الربيع بالعناية بها...

وعاد رجال مكة وقد ظنوا أنهم سجلوا نصراً على محمد إذ أعادوا ابنته إلى بيت زوجها ورأت هند بنت عتبة ما فعل رجال مكة وزوجها، فأقبلت عليهم تعيرهم بالذي فعلوا وتقول في سخرية بالغة:

أفي السلم أعيارٌ جفاءً وغلظة   وفي الحرب أشباه النساء العوارك؟

تعيرهم بالهزيمة يوم بدر أمام محمد وبالنصر في هذا اليوم أمام ابنته!

وانصرف رجال مكة والخزي والعار يجللهم، فقد أصبحوا لفعلتهم الكريهة هذه سبة حتى على لسان نسائهم وبناتهم...

أما زينب فقد عولجت علاجاً سريعاً، وبعد أيام خرج بها كنانة إلى حيث سلمها إلى زيد بن حارثة وعاد إلى مكة مرفوع الجبين.

وسار الركب بزينب يطوي المسافات الشاسعة إلى المدينة، والشوق والحنين يملآن جوانحها لأبيها العظيم، حتى إذا وصلت إلى رحابه، تلقاها بكل

ما يمكن أن يتلقى أب ابنته التي آبت إليه بعد غياب ولقيت في طريقها ما آذاها من صعاب...

* * *

مكثت زينب في بيت أبيها معززة مكرمة، ولكنها كانت كلما مرّ زمان على فراقها لزوجها تسائل نفسها: لماذا لا تسمع خبراً عنه، كيف يطيق فراقها وهي موقنة أنه يحبها... ألم يرفض عرض قريش عندما عرضوا أن يزوجوه أجمل امرأة في قريش إذا هو فارقها.. ألم يشتهر عنه أنه كان يردد أبياتاً من الشعر نظمها كلما فارقها في رحلة من رحلاته التجارية:

ذكـرت زينب لما ورَّكت إرمـا فقلت سُقياً لشخص يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحةً وكل بعلٍ سيُثني بالذي علمـا

ألا يدل هذا على عظم مكانتها عنده...

كيف يسلوها هذا السلو الطويل؟

إن طول المدة التي مكثها أبو العاص بعيداً عن زينب لتحيرها.. كيف يطيق هذا الفراق وهو لها محب وعلى عهدها محافظ؟

لم تسمع أنه تزوج من أخرى حتى تقول إن حبه تحول... فلماذا إذن يتأخر به القدوم.. لقد طال ما توقعت أن يطرق بابها معلناً إسلامه وعوده الحميد إلى بيت الزوجية الذي أحبه وتعلق به...

لم يطرق اليأس قلب زينب على طول المدة وتراخي الأيام، بل بقيت على أمل لا ينقطع في قدوم الزوج العزيز...

* * *

خرج أبو العاص في تجارة له نحو الشام، فاعترضته سرية من سرايا المسلمين واستولت على كل ما يحمل من تجارة، واستطاع هو أن يفلت من

القوم، واندفع فاراً بنفسه، ولم يجد له ملجأ إلا المدينة المنورة، فقد أخذ عليه المطاردون السبل، وعندما دنا من المدينة تداعت عليه ذكريات زوجه زينب، فما فكر في غيرها يلتجىء إليه، ويحتمي بـه، فطرق عليها بابها، فلما فتحته فاجأها بدخوله:

قالت وهي في حيرتها: أهلاً بك يا بن الخالة. . . وأخيراً اهتديت وعرفت الحق.

وأطرق أبو العاص ملياً ثم رفع رأسه خجلاً وقال: الحق أنني لم آت مسلماً، بل أتيت هارباً من المسلمين الذين يطاردونني، ولجأت إليك مستجيراً. . .

وما بين الألم الذي اعتصرها لهذا الجواب وبين الأمل الذي لا ينقطع في قلبها في هداية زوجها قالت: مرحباً بك أبا علي. . . وإنَّ ملتجئاً إلى حمى رسول الله لا يخيب. . .

ومضى الليل حتى إذا أَذَّن المؤذن لصلاة الصبح ،وشعرت زينب بوالدها يخرج للصلاة استعدت لأمر لم تفعله إمرأة مسلمة قبلها. . .

إنها ستعلن أنها أجارت أبا العاص زوجها. . .

وفكرت: هل يقرها أبوها على ما سوف تفعل؟ هل يجوز لامرأة أن تجير على المسلمين؟

وكبر رسول الله للصلاة، وكبر خلفه المسلمون. . .

وصممت زينب على المضي فيما اعتزمت عليه. . .

وأخرجت رأسها من سجف الباب ونادت بأعلى صوتها: إني أجرت أبا العاص بن الربيع.

وسمع رسول الله نداءها. . . وسمعه المسلمون.

وعندما سلّم رسول الله من صلاته قال: أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟

قالوا: نعم يا رسول الله، قد سمعنا ما سمعت.

قال عليه السلام: فوالذي نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت الذي سمعتم، المؤمنون يدٌ على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت...

وعندما انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صلاته، دخل على ابنته وعندها أبو العاص، فأسرعت إليه زينب في لهفة وهي تقول: «يا رسول الله، إن أبا العاص إن قَرُبَ فابن عمّ، وإن بَعُدَ فأبو وَلَد، وإني قد أجرته» وابتسم لها الرسول في رقة وحنان وقال: «قد أجرنا من أجرتِ، أي بنيَّة، أكرمي مثواه، ولا يخلُصَنَّ إليك، فإنك لا تحلين له».

وخرج رسول الله من منزل زينب إلى منزله، فتبعته طالبة أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه، فوعدها أن يفعل، وعادت زينب مطمئنة إلى أبي العاص، ونظرت في وجهه نظرة عتاب... كيف هانت عليه الفرقة كل هذه السنين.؟ ونظر إليها أبو العاص كأنه يعدها أن تعود المياه إلى مجاريها قريباً...

* * *

وقف أبو العاص في مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد التف حوله أصحابه، فرأى ما بهره من احترام وطاعة وتفانٍ في حب الرسول ما لم يَرَهُ لرجل من قبل في أسفاره حتى لكسرى وقيصر...، وعندما رفع رسول الله رأسه ليتحدث خشع الجميع وأنصتوا...

قال عليه السلام مشيراً إلى أبي العاص: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه ماله فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فَيْء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به».

أجاب القوم بصوت واحد: بل نرد عليه ماله يا رسول الله.

وقرنوا القول بالعمل، فأسرعوا يردون عليه ماله، كل يأتي ما ناله منه، حتى إذا ردوا عليه ما أخذوا قالوا له: هل بقي مما لك شيء.؟

قال: لا، جزاكم الله خيراً...

وانطلق أبو العاص إلى مكة مع كل ما حمله من مال التجارة.

وأتبعه رسول الله نظره، ثم قال لمن حوله: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي..».

* * *

وصل أبو العاص مكة، ونادى في قريش أن هلموا أموالكم، فاجتمع عليه القوم، فأخذ يوزع عليهم ما أودعوه من مال وما كسبه لهم في رحلته، حتى إذا أخذ كل إنسان ماله قال لهم: يا معشر قريش، لعله بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟

قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً...

عند ذلك قال لهم: «فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوُّف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت».

وبهت القوم لما سمعوا... ولم يردوا عليه بشيء..

أما هو فقد انطلق مهاجراً إلى المدينة.

ووقف بين يدي رسول الله يردد الشهادتين... فهرع إليه المسلمون مهنئين مرحبين، فقد كانوا يسرون للذي يُسرُّ له رسول الله، وقد علموا أن رسول الله يحب أن يسلم أبو العاص بن الربيع...

وردّ رسول الله ابنته زينب إلى زوجها، فرفرت السعادة على بيت زينب وعلى بيوت النبي جميعها، فقد علم الناس جميعاً أن رسول الله يحب ابنته،

ويسره ما يسرها، وقد علم أن مما يسر ابنته التئام شملها مع زوجها العزيز. . .

* * *

لم تكد تمضي سنة على عودة أبي العاص لزينب حتى مرضت مرضها الذي ماتت فيه. فبكاها أبو العاص بكاءً حاراً. . .

ووقف رسول الله إلى جانبه، فما كان حزن أبي العاص عليها أكثر من حزن أبيها رسول رب العالمين. .

أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النساء اللائي يتولين غسل زينب فقال لهن: «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك بماءٍ وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً، وابدأن بميامنها ومواضع الوضوء، فإذا فرغتن فآذنني».

وفعلت النساء كما أمرهن رسول الله، فلما فرغن أبلغنه، فأعطاهن حقوه ـ إزاره ـ وقال: أشعرنها إياه».

وأخذت النساء إزار رسول الله، وألبسنه زينب ودفنوها به. . .

* * *

وبقي من رائحة زينب ريحانة جميلة. . . ابنتها أُمامة، فكانت من أحب آل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قلبه الكريم حدثت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع، فقال: لأدفعنها إلى أحب أهلي إليّ، فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة. . . لكن رسول الله دعا أُمامة بنت زينب فعلقها في عنقها.

صَفيّة بنتُ عَبْد المطّلبْ

امرأة هاشمية في الذروة العليا من النسب.

أبوها عبد المطلب بن هاشم سيد قريش بلا منازع.

وأخوها حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

وزوجها العوام بن خويلد أخو السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين.

وابنها الزبير بن العوام حواري الرسول وأحد العشرة المبشرين بالجنة وواحد من أبطال الإسلام.

وهي عمة رسول الله محمد بن عبد الله سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والمرسلين...

لقد أحاطت صفية بالشرف وأحاط بها من أطرافه، فهي ترفل في أعطافه كابراً عن كابر...

ولقد ظهرت صفات بني هاشم وأخلاقهم في صفية في وضوح وجلاء، فهي سيدة على درجة رفيعة من الأخلاق وعلى قدر وافر من الحزم وعلى قمة عالية من الفصاحة والبيان.

* * *

مات عنها زوجها العوام بن خويلد وترك لها ابنها الزبير صغيراً، فتولت تربيته...

أرادت صفية أن يشب ولدها على الرجولة والإقدام، أرادت أن تصنع منه بطلاً يتحدث الناس عن بطولته..

لهذا كانت تعامله بحزم رأى فيه كثير من الرجال قسوة لاموها عليها...

يروى أن عم الزبير نوفل بن خويلد لام صفية على أسلوبها الحازم في تربية الزبير، وقال لها: ما هكذا يُضرب الولد! إنك لتضربينه ضرب مبغضة!

هكذا يتهم العم امرأة أخيه بالقسوة على ابنها، ويجبهها بالاتهام: إنك لتضربينه ضرب مبغضة!

وصفية ترى أن الحزم في تربية الزبير ينشئه على الرجولة والبطولة، فترد على عمه قائلة:

من قال إني أبغضُهُ فقد كذب ۰ وإنما أضربُهُ لكي يلبّ
ويهزمُ الجيشَ ويأتي بالسَّلب ولا يكن لمالِهِ خَبَأً مُخبّ
يأكل ما في البيتِ من تمرٍ وحبّ

هكذا كانت صفية تريد ابنها، وعلى هذا نشّأته، لبيباً، بطلاً، كريماً، قنوعاً..

ولعل في الحادثة التالية ما يعطينا صورة عن نظرة صفية إلى ابنها، وعن الرجولة التي تحلى بها الزبير نتيجة تربيتها...

تخاصم الزبير وهو غلام مع رجل كبير قوي البنية، فصارعه الزبير حتى صرعه وكسر احدى ساقيه، وسمعت صفية الأصوات تعلو حول المتشاجرين، فخرجت لترى الخبر، فشاهدت رجلاً يحمله قومه، فلما سألت عن شأنه أخبروها أن ابنها الزبير قد صرعه وكسر رجله، فأخذتها نشوة وأقبلت على الرجل وقالت له:

كيف رأيت زبرا أقِطاً وتمرا أو مشمعلاً صقرا؟!

كلمات تنطق بالإعجاب والافتخار بما آل إليه ولدها من بطولة ورجولة وقوة. . .

كانت صفية من أوائل الذين دخلوا في الإسلام، وكانت ذات مكانة عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم ذلك رجال قريش ونساؤها. . . فعندما نزل أمر الله إلى رسوله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قام النبي في عشيرته خطيباً، ووعظهم وخوفهم. . . وعندما أراد أن يضرب لهمْ المثل، ضرب لهم المثل بمن أحب، بل بأحب الناس إليه وأقربهم منزلة منه قال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً».

وهكذا نرى أن رسول الله قرن بين ابنته فاطمة وعمته صفية. . . وكانتا من أقرب الناس إلى قلبه. . .

* * *

هاجرت صفية مع ابنها الزبير بن العوام، وانضمت إلى الصفوة التي اختارها الله لبناء المجتمع الإسلامي الطاهر الذي سوف تقوم على عاتقه دولة الإسلام وسوف يهتدي بدعوته كثير من الأنام. . .

ونشب الصراع بين الكفر والإيمان، وعصف جند الله في بدر بجند الشرك والطغيان، فغلت صدور يهود والمنافقين غيظاً، واشتعلت صدور كفار قريش حقداً، وتداعى هؤلاء وهؤلاء إلى الوقوف في وجه دعوة الحق، وحرض يهود مشركي قريش على الحرب، وأمدوهم بالمعلومات، فقد كانوا عيونهم في المدينة على المسلمين، فحشدت قريش حدَّها وحديدها، وأقبلت إلى المدينة تريد المسلمين، وهي عازمة على القضاء عليهم، فهكذا زين اليهود لهم، وهكذا خيَّل لهم شيطانهم. . .

واستعد رسول الله للقاء العدو، وخرج بالمسلمين إلى أحد، ونفر كل من بالمدينة، رجالها إلى الميدان وبعض من نسائها لحقن بالمجاهدين يعينون

بالماء والإسعاف، ومن بقي من النساء والأطفال نفروا يتسقطون الأخبار ويدعون الواحد القهار. . .

ودارت معركة أراد الله أن يمحص فيها المؤمنين، فاستشهد منهم عدد كبير، كان من بين الشهداء حمزة بن عبد المطلب أخو صفية وسيد الشهداء. . . وقد مثل المشركون بحمزة حقداً وغيظاً فقد فعل فيهم الأفاعيل وقتل من صناديدهم العدد الوفير. . .

وعلمت صفية باستشهاد أخيها، وبلغها خبر التمثيل به، فأقبلت على المسلمين وهم لا يزالون في أحد يوارون شهداءهم التراب. . .

ورأى رسول الله صفية قادمة تشتد، فقال لابنها الزبير بن العوام: «إلقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها الحمزة بن عبد المطلب».

فأسرع إليها ولدها فأوقفها وقال لها: يا أُمَّه، إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمرك أن ترجعي.

قالت: ولمَ، فقد بلغني أنه مُثل بأخي، وذلك في الله عز وجل قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرنَّ إن شاء الله.

هذا موقف تقفه امرأة مسلمة مؤمنة. . . عميقة الإيمان، جلدة صبورة. . عظيمة الصبر، ولقد نطقت عند الصدمة الأولى بما يشف عن هذا الإيمان العميق والصبر العظيم: «وذلك في الله عز وجل قليل». . . وإذا كان الأمر في ذات الله وفي سبيل الله: «فما أرضانا بما كان من ذلك». . . وإذا حدث الرضى بقضاء الله فإن عاقبة ذلك: «لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله». . .

ولما بلغ رسولَ الله موقفُ صفية وأقوالها ذات الدلالة البالغة قال لابنها: «خلِّ سبيلها». . .

وأقبلت صفية حتى وقفت على جثة أخيها سيد الشهداء؛ فنظرت إليه،

وصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، وبقيت حتى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدفنه. . .

لقد صبرت واحتسبت، وصلت على أخيها واستغفرت له. . . دون أن ترفع صوتاً أو تخمش وجهاً، ولقد كانت على أخيها حزينة ولكنها فعلت في هذا الموقف المزلزل ما أمر به دينها الذي آمنت به وهاجرت من أجله وجاهد أخوها وابنها في سبيله. . .

لقد حزنت وبكت ولم تقل إلا ما يرضي الله تعالى.

لقد كانت صفية شاعرة من شواعر العرب. . يهزها الموقف الحزين، ولقد هزها موت أخيها فأثار عاطفتها فقالت ترثيه:

أسائلة أصحاب أُحد مخافة ... بنات أبي من أعجم وخبيرِ
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرورِ
فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبا ... بكاءً وحُزناً مَحضري ومَسيري
فيا ليت شلوي عند ذاك وأعظمي ... لدى أَضْبُعٍ تعتادني ونُسورِ

* * *

وظن يهود أن هذه ضربة أولى زلزلت أقدام المسلمين، فعقدوا العزم على أن يدبروا ضربة أخرى أكبر من هذه تكون ـ في زعمهم وظنهم ـ الضربة القاضية. . . فاندفعوا يؤلبون قريشاً وقبائل العرب على المسلمين، واستطاعوا أن يجمعوا أكبر جيش عرفته جزيرة العرب، وساروا به لحرب المسلمين.

واستعد رسول الله لهذا الجيش الكبير. . . حفر الخندق، وعقد مع يهود بني قريظة هدنة، وجمع النساء في أُطُم حسان بن ثابت، وكان أُطماً حصيناً، وأوصى حساناً أن يحافظ عليهن في حصنه. . .

كان من بين النساء اللاتي دخلن الحصن صفية بنت عبد المطلب. . . كانت مع النساء تشجعهن وتثبتهن، وكانت مع الأطفال ترعاهم وتتعهدهم. . .

وطال حصار قريش للمدينة، فاشتد ذلك على المسلمين، وقد زادهم شدة على شدة الحصار نقض يهود بني قريظة للهدنة التي بينها وبين المسلمين . . .

ونشط يهود بني قريظة لمعونة قريش، وعلى عادتهم في الخسة والنذالة وجهوا أحدهم ليطوف بحصن حسان ليرى إن كان ثمة من حراسة على من به من النساء.

وشاهدت صفية هذا اليهودي الوغد يطوف بالحصن ويحاول أن يتسلقه، فتناولت عموداً ضخماً، وتربصت باليهودي حتى دنا من باب الحصن، ففتحته فجأة وانقضت عليه، فما زالت تضربه بالعمود حتى نفق!

ولما أبطأ اليهودي على قومه، أرسلوا من يتسقط خبره، فوجده سطيحة غارقاً بدمه، فهرول مسرعاً فأخبر الغادرين بمصيره، عند ذلك ظن يهود أن بالحصن رجالاً يحرسونه، فكفوا عنه وتحاشوا الاقتراب منه.

وهكذا أنقذت صفية بذكائها وجرأتها من بالحصن من نساء المسلمين وأطفالهم من اعتداء يهود، وحمت بذلك حرمات المسلمين أن يعتدى عليها، ولنا أن نتصور مدى تأثير ذلك على المسلمين المحاصرين لو علموا أن نساءهم وأطفالهم من خلفهم قد اعتدي عليهم. . . ولكن صفية كانت هناك، وكفى الله بذكائها وجرأتها شراً مستطيراً. . .

* * *

وتتابعت انتصارات المسلمين بعد الخندق، وتمَّ الفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وجاء أمر الله وانتقل رسوله إلى الرفيق الأعلى. . .

وكان لوفاة الرسول على عمته صفية أثره البالغ، فلجأت إلى شاعريتها تبكيه؛

عينُ جودي بدمعةٍ وسُهود وانـدبي خير هالكٍ مفقود

واندبي المصطفى بحزنٍ شديدٍ   خالط القلب فهو كالمعمود
كدتُ أقضي الحياة لما أتاهُ   قدر خط في كتابٍ مجيد
فلقد كان بالعباد رؤوفاً   ولهم رحمة وخير رشيد
رضي الله عنه حيّاً وميْتاً   وجزاه الجنانَ يوم الخلود

وعاشت صفية ـ رضي الله عنها ـ حتى خلافة عمر، وتوفيت في أثنائها، فصلى عليها الفاروق، ودفنها بالبقيع مع أصحاب رسول الله ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ.

عَائشَة ... بنت الصِّدّيق

كان بنو تَيْم، قوم عائشة، من القبائل القرشية التي احتلت مكانة في مجتمع مكة، فقد كان فيهم السخاء والكرم وسماحة الخلق، وكانوا مضرب المثل في حسن معاشرة النساء... فكانت أسرهم تعيش في سماحة وود وصفاء.

وكان من أبرز رجال تيم أبو بكر بن أبي قحافة، والد عائشة، فقد كان رجلاً تاجراً ميسور الحال، عرف بحسن الخلق وطيب المعشر حتى ألفه كل رجل في قريش، وزاد من هذه الألفة ما عرف عن الرجل من حفظه للأنساب وحفظه للأشعار وعلمه الغزير بتاريخ قريش وما حولها من قبائل العرب...

وكان من رجاحة عقل أبي بكر أنه استجاب لدعوة صديقة محمد بن عبد الله دون تردد، فآمن وآزر، وبذل الوسع في الدعوة إلى الله...

كان أبو بكر شريفاً في الجاهلية، فلما جاء الإسلام وبادر إلى الإيمان ازداد شرفاً على شرف، وما زال ذكره وشرفه بازدياد حتى أصبح الرجل الثاني في الإسلام وحتى رضيه المسلمون خليفة لرسول الله وفوضوا له أمورهم فكان عند حسن ظنهم... وكان كذلك طيلة حياته عند حسن ظن الناس به...

وكان أبو بكر متزوجاً من امرأة من كنانة تدعى أم رومان، رضية الخلق،

محمودة السيرة. . آمنت إذ آمن زوجها، وأخلصت في هذا الإيمان حتى قال عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من سرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان».

هذا هو والد عائشة، أبو بكر الصديق. . . وهذه هي أم عائشة، أم رومان. . . امرأة من الحور العين. . . وفي كنف هذين العلمين درجت عائشة وتلقت لبان الرقة والمحبة والكرم، وفي هذه الأسرة الحميدة نبتت زهرة متفتحة ووردة ذات عبير. . .

ومما زاد في حظ عائشة من حسن التربية أنها ولدت وأبواها يدينان بالإسلام. . . فلم تكتحل عيناها إلا بمنظر أبويها يؤديان الصلاة ويسعيان من أجل الدعوة سعيهما. . ولم يتفتح قلبها إلا على حب الدين والتفاني في هذا الحب، ولم يمس أذنيها إلا أصوات أبويها وهما يتلوان القرآن. . . وكان أبو بكر شديد الرقة في قراءة القرآن حتى إنه ليبكي ويُبكي وحتى إن قريشاً خافت على رجالها ونسائها أن تفتنهم قراءة أبي بكر فيتابعونه على دينه، فسعوا ليكفوه عن رفع صوته بقراءة القرآن. . .

وتشرفت هذه الأسرة الطاهرة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ كان ـ عليه السلام ـ دائم الزيارة لأخيه ووزيره أبي بكر، لا يمر يوم إلا ويأتي إلى داره، يبحثان معاً أمر الدعوة، ويجتهد أبو بكر في الاستماع لرسول الله وتنفيذ أوامره. . .

وكان كل ذلك يحدث وعائشة ترى وتسمع، وقد وقر في قلبها حب الرسول وتبجيله لما ترى من حب أبويها له وتبجيلهما لمقامه. . .

وكان رسول الله يميل إلى عائشة إذ كانت ابنة أبي بكر، وإذ كانت تبدو عليها أمارات الذكاء والفطنة وهي لم تزل بعد في سني طفولتها الأولى؛ وكثيراً ما أوصى أمها بها قائلاً: «يا أم رومان، استوصي بعائشة خيراً، واحفظيني فيها».

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأم رومان عن عائشة: «واحفظيني فيها».

وهذه عبارة تدل على عطف وإعجاب ومودة...

يا أم رومان احفظيني فيها...

فمراعاة عائشة... ورعايتها تسر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترضيه...

* * *

ماذا أراد الله بهذه الطفلة الودود...

ماذا أراد الله بها من خير... ومن بركة...

عاشت في كنف بيت من أرفع البيوت القرشية ومن أعلاها ثقافة.

عاشت في بيت كان أول البيوت بعد رسول الله وبيته إسلاماً وإيماناً وجهاداً.

ثم أراد الله لها منزلة أكثر رفعة وأشد سمواً... فاختارها الله زوجاً لرسوله وهي بعد في سن الطفولة.

لقد تفتحت هذه الفتاة على الإسلام في صفائه ونقائه في بيت أبي بكر ثم في بيت النبوة المباركة.. وشاء الله أن تكون حياتها كلها دروساً بليغة للأسرة المسلمة.

كانت حياة رسول الله كتاباً مفتوحاً، ليس فيها من سر يطوى عن المسلمين...

فالرسول ـ عليه السلام ـ قدوة المسلمين في كل أمر مهما صغر...

والرسول ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أسوة المسلمين في كل شيء.. في العبادة والجهاد والمجتمع والأسرة...

لهذا كانت حياة عائشة مع رسول الله كتاباً مفتوحاً وصفحة مقروءة للناس أجمعين...

كان زواجها ـ رضي الله عنها ـ أول الدروس ومبتدأ العبر. . .

تزوجها رسول الله. . . أقول رسول الله. . . أكرم الخلق على الله، في بيت بسيط. . . بسيط جداً. . . وما لي أقول في بيت وهو في الواقع حجرة واحدة!

كانت هذه الحجرة مبنية من اللبن وسعف النخيل.

وكان بابها ستاراً من الشَّعْر!

وكان أثاثها فراشاً من أُدم (جلد) حشوه ليف ليس بينه وبين الأرض إلا حصير!.

كان البيت الذي دخلته العروس.. أم المؤمنين.. زوج خاتم المرسلين.. من لبن وسعف أثاثه فراش من جلد حشوة ليف. . .

فأي بساطة هذه التي ارتضاها الله لرسوله وزوج رسوله.

وأي قدوة أراد الله أن تكون حياة هذه السيدة الرفيعة حسباً ونسباً، المتفردة جمالاً وخلقاً ثم ماذا كان مهر هذه السيدة الجليلة. . . كان خمسمائة درهم.

مهر متواضع. . . لا يعدو أن يكون رمزاً.

لم يكن هذا المهر الرمز لامرأة عادية من أخلاط الناس، بل كانت ابنة رجل بني تَيم وسيد من سادات قريش وواحد من أثريائها. . .

لم يكن هذا المهر الرمز لامرأة رجل عادي. . بل كان مهراً لزوج سيد البشر أجمعين. . . محمد رسول الله وخاتم رسله إلى البشر أجمعين. . .

فما بال رجال ونساء من المسلمين اليوم لا يقتدون بسيد البشر. . وبرسولهم. . بأسوتهم. . فيغالون في المهور ويبالغون فيها حتى غدا كثير من شباب المسلمين يعزفون عن الزواج أو يؤخرونه إلى أجل يتوافر فيه المال المطلوب. . . أو الضريبة المفروضة!. . . يبالغون في المهور حتى غدت نسبة كبيرة من فتيات المسلمين في عنوسة مقيتة. . . وحتى غدونا من فتنة في المجتمع

قريبة تهزه وتزلزله. . .

أليس لنا في رسول الله أسوة؟

فما بالنا لا نتأسى به ونحن نشهد كل يوم أنه رسولنا وقدوتنا؟!

لقد دخل المجتمع الإسلامي في محنة عظيمة بمغالاته بالمهور. . . فهل لهذه المحنة من جلاء. . . وهل لهذه المحنة من رجال مؤمنين ونساء صالحات يقتلعونها من جذورها ويقبلون على سنة الهادي ويرفعون الأغلال التي وضعوها على كواهل أبنائنا وبناتنا. . .

ثم كيف كان الاحتفال بزواج هذه السيدة الرفيعة بالسيد الجليل الشأن رسول البشرية وسيدها. . .

تقول السيدة عائشة: «ما نُحرت عليَّ جزور ولا ذُبحت من شاة. . . حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله».

ما نحرت في عرس عائشة من جزور.

ولا ذبحت في عرس عائشة من شاة.

بل ما قدم في عرسها من طعام حتى أرسل أحد الصحابة جفنة فيها طعام. . . طعام اعتاد هذا الصحابي أن يرسله إلى رسول الله كل يوم.

أي لم يكن طعاماً متميزاً. . . إنه طعام عادي. . . بسيط.

فأي بساطة هذه. . وأي تواضع. . .

وأي أسوة يقدمها رسولنا الكريم لأمته في مسألة الزواج. . .

بساطة في المهر وبساطة في تقاليد الزواج.

وأي سنة تنكبها المسلمون في مراسيم زواجهم حتى غدوا في حال من الضنك يقاسونه ويعانونه كلما هموا ببناء الأسرة. . .

الأسرة التي عليها عماد المجتمع المسلم. . . المتحاب. . . المتعاطف. . . المتعاون. . . الذي يشد بعضه أزر بعض.

إن ما عليه حال المسلمين في الزواج اليوم ليدمي قلوب المؤمنين ويفرق شمل المسلمين ويوهن من مجتمعهم الذي أراده الله متعاوناً متحاباً متماسكاً. . .

فهل إلى عودة لسنة رسول الله في الزواج وفي المهور من سبيل؟

إنها دعوة مخلصة للآباء والأمهات أن يعودوا لدينهم وبساطته في الزواج. . . إنها دعوة من أعماق قلب مؤمن أن يخرج هؤلاء الآباء من جحر الضب. . . فقد دخلوه والله من أبواب شتى منها باب المبالغة في المهور والاسراف في الاحتفالات بالزواج.

هل إلى خروج من هذا الجحر من سبيل؟!

نعم إنه اتباع سنة المصطفى عليه السلام. . ولنا في زواجه من عائشة قدوة وأسوة ومثال.

* * *

كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكانت ابنة الصديق أبي بكر. . .

وكانت ابنة أم رومان التي وصفت بأنها من الحور العين. . .

ولكنها كانت امرأة. . لها عواطف المرأة ولها أحاسيسها.

وكذلك أراد الله أن تكون عائشة، وكذلك أراد الله أن نطلع على حياتها بتفاصيلها، وذلك حتى لا نضيق بنسائنا وكلهن أدنى من عائشة منزلة وقدراً.

وكذلك رأينا رسول الله يعالج ما فطرت عليه النساء بأخلاق الإسلام حتى يعلم المسلمون كيف تكون معاملة الأزواج. . .

كانت عائشة محبة لرسول الله. . . تغار عليه. . . ولا تحب أن تشاركها فيه امرأة أخرى، إذ الغيرة من طبائع النساء. . . وهي فطرة فطرت عليها بنات حواء لا يستطعن التبرؤ منها.

لقد أطلعنا على نماذج من غيرة عائشة...

نماذج متعددة، نستطيع أن نسرد منها عدداً وافراً.

ولكن.. ما لنا ولسرد النماذج لغيرة السيدة عائشة ممن شاركنها منازل الرسول وممن شهدتهن وكلمتهن، ونحن نستطيع أن نستعيض عن كل ذلك بذكر غيرتها ممن لم ترها من زوجات الرسول وممن لم تشاركها المنزل... فغيرتها من السيدة خديجة ـ عليها السلام ـ نموذجاً فذاً لغيرة الأنثى على زوجها...

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائم الثناء على خديجة.. حتى إنه ليكرم صديقاتها إكراماً لذكراها...

وقد اشتعلت نار الغيرة في صدر عائشة مما رأته من حب رسول الله لخديمة... وذكره لها بالتجلة والحب بعد موتها بسنين، فما ملكت نفسها أن قالت له:

«وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، أبدلك الله خيراً منها!».

إنها امرأة... ولا يعيبها أن تغار على زوجها... وزوجها رسول الله... وليس كمثله زوج، فحق لها أن تغار عليه...

ورسول الله بوفائه الذي يتجاوز الحدود رد على عائشة وهو مغضب فقال:

«والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

وسكتت عائشة... ولعلها ندمت على ما بدر منها بحق خديجة...

ولم تخرج عائشة عن فطرتها إذ غارت على زوجها.

فالغيرة من الطبائع التي فطر الله النساء عليها.

وفي غيرة عائشة دعوة لنا أن لا نضيق بغيرة النساء.

وفي معاملة الرسول ومواقفه من هذه الغيرة مثال لنا يحتذى. . .

* * *

عاشت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في بيت النبوة، تشاهد الرسول، وتسمع حديثه، وترافقه في جهاده. . وهي في كل أحوالها تحفظ ما تسمع وتعي ما تشاهد، وتفهم ما ترى. . . ومع حفظها وفهمها آتاها الله فقهاً لما تسمع وتعي.

وعاشت أم المؤمنين بعد رسول الله زمناً طويلاً كانت فيه مرجعاً للمسلمين في كثير من شؤون دينهم. . .

لقد جمعت عائشة علماً غزيراً ووعت ما جمعت وأفادت به من حولها من المسلمين.

لقد روت أمهات المؤمنين عن رسول الله أحاديث، وما روته عائشة أربى على ما روته أمهات المؤمنين مجتمعات. . .

قال الإمام الزهري: «لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل».

ولم يقتصر علمها على الحديث الشريف، بل حفظت الأشعار وألمت بالطب.

روى هشام بن عروة عن أبيه: «ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة».

كان بيتها ـ رضي الله عنها ـ مقصد طلاب العلم، يستمعون منها، وينقلون علمها وفقهها إلى الأمصار.

لقد أدت الأمانة التي حملتها عن رسول الله خير أداء.

رحمها الله ورضي عنها. . .

حَفصَة ... بنت الفاروق

إنها السيدة الصوامة القوامة بشهادة السماء. . .

توفي عنها زوجها خُنيس بن حذافة السهمي وهي في الثامنة عشرة من عمرها. . .

وأَهَمَّ أمرُها أباها عمر بن الخطاب. . .

وأراد لها أن تعيش حياة مستقرة آمنة. . . ولا بد للمرأة من بيت تأوي إليه مع زوج صالح يرعاها وَمَن مِن سادة المسلمين أولى بحفصة من عثمان بن عفان، فهو من السادة المشهود لهم بحسن الخلق وكريم المعشر. . . وهو من بعد صاحب مقرب من عمر. . . وقد توفيت عنه زوجه رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وفكر عمر. . . ألا أعرض حفصة على صاحبي عثمان؟.

وبعد تقليب الأمر قرَّ رأيه على ذلك، وعزم عليه. . . وقام من فوره وذهب إلى عثمان بن عفان.

قال عمر لعثمان: هل لك يا عثمان في حفصة؟

وأطرق عثمان مفكراً. . . ثم رفع رأسه وقال لعمر: أمهلني يا عمر أياماً أفكر.

وانصرف عمر من مجلس عثمان وهو لا يشك في رغبة عثمان في صهره،

وكيف يرغب عثمان عن مصاهرة عمر بن الخطاب، وهو يعلم منزلة عمر في الإسلام وقربه من رسول الله...

ولكن عثمان أبلغ عمر بعد أيام بعدم رغبته في الزواج!

وتأثر عمر من موقف عثمان...

وفكر فيمن يزوجه من حفصة غير عثمان... فذكر أبا بكر الصديق... وذهب إليه، وعرض عليه الأمر، فصمت أبو بكر ولم يجب.

وكان تأثر عمر من أبي بكر أشد من تأثره من عثمان.

وكان وقع هذا الرد عليه كبيراً...

إن عمر يريد لابنته زوجاً صالحاً، وأحب أن يختار لها بنفسه ذلك الزوج... وقد صدمه وآلمه أن يتلقى من صاحبيه رداً رافضاً.

ولم يحتمل عمر ما سببه له صاحباه من آلام، فهرع إلى رسول الله يبثه شكواه...

ولقي عند رسول الله ما فرج عنه همه وأزال عن صدره كربه... تبسم رسول الله في وجه عمر وقال: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة».

وهبطت على عمر موجة من الفرح والسعادة، وغمرته بضيائها وسناها... ستغدو حفصة زوجاً لرسول الله... وأماً للمؤمنين...

وزف عمر البشرى لابنته.

وغمر الفرح بيت عمر.

وشاع الرضا في كل جارحة من جوارح هذا الرجل العظيم...

هذا ما فعله عمر... واحد من السادة العظام جاهليةً وإسلاماً.

مات زوج ابنته... فسعى ليجد لها زوجاً غيره.

رجل سيد عظيم يريد لابنته أن تأوي إلى زوج وأن يضمها بيت الزوجية.

لـم يجد في ذلك حرجاً . . . ولم يأنف من عرض ابنته على من يجده كفئاً لها .

ترى كم من أب من المسلمين اليوم يتبع سنة عمر؟

لقد رأينا من المسلمين من يأنف أن يبحث لابنته عن الزوج الصالح ولا يأنف أن تخرج ابنته سافرة مخالفة لله ورسوله . . .

ورأينا كثيراً من بناتنا لا يجدن الأزواج ويقبعن في كهف العنوسة المظلم . . . أعرض آباؤهن عن سنة الإسلام وأعرضن . . . فكان أن عاشوا حياة الضنك والشقاء . . . وهل هناك ما هو أشد ضنكاً وأقسى شقاء من العنوسة للفتاة؟!

فيا أيها الآباء عليكم بسنة عمر . . . وهي سنة الإسلام في اختيار الأزواج والبحث عن الأكفاء «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه» . . وإن لم يجيء بحثنا عنه . . . وإلا فما أقسى الفتنة التي تشيع في مجتمع تكثر فيه النساء الأعزاب[1]!

* * *

وانتقلت حفصة إلى بيت رسول الله . . .

كانت عائشة وسودة قد سبقتاها إليه . . . ثم جاءت إليه من بعد نساء أخريات . . .

فهل كان بين حفصة وأزواج النبي ما كان يكون بين الضرائر من النساء؟

وهل كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضيق ذرعاً بنسائه إذ يتنافسن في حبه ويخرجن عن الحدود المعقولة في هذا التنافس؟

لقد كان يحدث بين نساء النبي ما يحدث بين الضرائر . . . كانت عائشة

---

(١) العَزَبُ: من لا زوج له، رجلاً كان أو امرأة، ويقال : امرأة عَزَبَة، والجمع أعزاب. [أنظر اللسان مادة عزب].

وحفصة في صف واحد.. يكدن لمن يرينه من نسائه الأخريات خطراً عليهن...

والحوادث في هذا كثيرة...

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسعهن بحلمه وبفضله... كان يعرف طبائع النساء وما فطرهن الله عليه.. فكان يصفح وكان يعفو...

ولكن إذا ما تجاوز ذلك الحدود كان يردهن بحزم إلى الصواب... وقد دفعت الغيرة حفصة إلى أن أفشت سراً لرسول الله...

وهنا كان لا بد من الحزم... فطلق الرسول حفصة.

وعلم عمر بذلك، فاهتزت مشاعره، وشعر وكأن سهماً غائراً اخترق عواطفه.. لقد كان سعيداً بإصهاره إلى رسول الله بالإضافة إلى قربه منه... وقد وقع هذا الطلاق منه موقعاً أليماً... وقال في نفسه مؤنباً راثياً لها: «ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها»!

ولم تطل الأزمة بعمر وابنته... فقد أمر الله رسوله أن يراجع حفصة، ونزل جبريل ليقول له: «ارجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة».

وكم كانت فرحة حفصة غامرة... وكانت فرحة عمر بذلك أشد وأكبر...

كان في بيت رسول الله عدد من النساء... وكانت نساؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتصرفن بفطرتهن مع التزام بالهدي النبوي وبالتعاليم الإلهية..

ومن فطرة النساء هذه الغيرة وذلك الكيد الذي لا ينتهي بين النساء... وبين الضرائر بالذات.

ولنا أن نقول هنا: إذا كانت الضرائر تتنافس على حب أيِّ زوج... ألا

نكون عاذرين لنساء يتنافسن على حب أفضل البشر رسول الله إلى الناس كافة!

بلى... فلهن العذر كل العذر...

* * *

كان بيت رسول الله بيت نبوة... وبيت النبوة بيت علم... وكانت نساء النبي يحرصن على تلقي العلم من رسول الله، يحفظن القرآن، ويروين الحديث، وكان هذا الحفظ وتلك الرواية مقرونة بالفهم والتدبر، وكانت نساء النبي يناقشنه ويستفسرن منه... وفي بعض الأحيان يراجعنه المعنى... ويسجلن لأنفسهن رأياً في التفسير والتأويل...

وكان رسول الله يتلقى كل ذلك منهن بما عرف عنه من سعة الصدر والأناة والرأفة وسمو التوجيه.. لقد كان عليه السلام يقدم بيته قدوة لبيوت المسلمين... يقدم نساءه قدوة لنساء العالمين...

يروى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر عند حفصة أصحابه الذين بايعوه تحت الشجرة في صلح الحديبية فقال: «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها».

هكذا قال رسول الله لحفصة ذاكراً أصحابه المبايعين بالخير، ومبشراً لهم بالنجاة من النار.

كان من الممكن لحفصة أن تسكت، أليس الذي يحدثها رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا حقاً وصدقاً؟

ولكن حفصة تتذكر آية من القرآن الكريم فهمت منها غير الذي فهمته من حديث الرسول... فقالت وكأنها تستدرك عليه: بلى يا رسول الله...

فزجرها الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولكنها ـ وكأنها تصر على رأيها ـ تلت قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها

كان على ربك حتماً مقضياً﴾.

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - يردها إلى الصواب: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾.

لقد كانت هذه المحاورة وكأنها درس علم عقد في بيت حفصة، تلميذة ظنت أنها وقعت على معنى فريد ثم تبين لها أنها أخطأت الفهم... وأقرت بعدُ بالصواب.

ومما يذكر في تفسير هذه الآية لابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال لسائل سأل عنها: لا يشترط لمن ورد أن يشرب! وكأن جميع الخلق سيردون على جهنم.. أما الناجون فإن الله أراد أن يطلعهم على هول ما نجوا منه، وأما الظالمون فإنهم سيسقطون فيها جثياً...

* * *

وعاشت حفصة في كنف النبي، تعيش لحظات النبوة السامية، وتتابع انتصار الرسول على أعدائه، وتشاهد وتسمع علو راية الإسلام وانتكاس رايات الكفر...

وعاشت لحظات قاسية مرة في وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتولى أبو بكر الخلافة، وسار على هدي النبي، ورعى أزواجه، وأعلى من مقامهن، وعندما ثارت حروب الردة وقتل من المسلمين من قتل بدا لأبي بكر أن يجمع القرآن، فجمعه من الصحف والرقاع... وضم بعضه إلى بعض، ولما عزم على حفظه مجموعاً، وجال بفكره يتدبر المكان الذي يودعه فيه والشخص الذي يأتمنه عليه... وقع رأيه على أم المؤمنين حفصة...

يا له من شرف لا يداني... كتاب الله المنزل هداية للبشرية إلى أن تقوم الساعة يحفظ في منزل حفصة، يا له من فخر يمتد إلى أبد الأبدين، ليس لأم المؤمنين حفصة فحسب، بل لكل امرأة مسلمة ضمها هذا المجتمع الإسلامي

العظيم الذي يمتد من عهد محمد بن عبد الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . .

وحفظت حفصة الأمانة الغالية، حفظتها كأحسن ما يحفظ المسلم الأمانة. . . واستمرت ترعاها وتحرسها وتحفظها أكثر من عشر سنين إلى أن سلمتها إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذي نسخ عنها نسخاً وزعها على الأمصار الإسلامية الشاسعة.

وتفرغت حفصة لصلاتها وصيامها وقيامها إلى أن صعدت روحها إلى بارئها لتلقى هناك حبيبها محمداً صلى الله عليه وسلم. . .

أمّ سلمة ... بنت زاد الركبِ

أم سلمة. . هذه كنيتها. . أما اسمها فهند.

أبوها رجل من أجواد قريش وسادتها المعدودين. . إنه أبو أمية سهيل بن المغيرة المخزومي، لقبه أهل مكة بزاد الركب. . إذ كان إذا خرج في قافلة تكفل بزادها. . لا يقبل أن يخرج معه أحد بزاد. . .

أمها عاتكة بنت عامر الكنانية، وجدها علقمة كان يسمى جَذل الطعان. . إذ كان فارساً معدوداً لا يباريه رجل في الفروسية والنزال. . .

فأم سلمة من بني مخزوم.

وبنو مخزوم ثالث ثلاثة قبائل في قريش كانت تتنافس الشرف. . . بنو هاشم وبنو أمية وبنو مخزوم. . .

وبنو هاشم وبنو أمية كان يجمعهم عبد مناف.

فكان بنو مخزوم يرون أنهم أحق بالسيادة في قريش من بني عبد مناف.

لهذا كان سادة بني مخزوم من أشد الناس عداوة للإسلام إذ نظروا إليه نظرة التنافس القبلي على السيادة والشرف.

كانوا يرون أن محمداً وهو من بني عبد مناف قد أضاف شرفاً جديداً لقومه، وأنه بنبوته يحقق التفوق المطلق لبني عبد مناف على بني مخزوم. . .

لهذا قال أبو جهل المخزومي قولته المشهورة عندما سئل عن موقفه من نبوة محمد:

«وماذا أقول في ذلك؟.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!».

كان التنافس شديداً... وكان العداء الذي أظهره بنو مخزوم للدعوة أشد، وقد تزعموا مقاومة هذا الدين الجديد، وذهب زعيم بني مخزوم، أبو جهل، في هذا العداء كل مذهب حتى سماه الرسول فرعون هذه الأمة وحتى دعاه المسلمون بأبي جهل...

ولم يمنع هذا العداء الشديد أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي من الإيمان.. فقد كان ذا عقل وذا رأي.. وقد رأى بثاقب عقله أن الحق مع محمد بن عبد الله فاتبعه...

وكذلك كانت زوجه أم سلمة.. ذات عقل ورأي سديد فآمنت...

ولقي أبو سلمة من عشيرته العنت.. ناصبوه العداء.. وهجروه.. وعذبوه، وكذلك فعلت قريش في كل من أسلم حتى أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة، فكان أبو سلمة وزوجه أم سلمة من بين أول من هاجر بدينه وأول من وصل إلى الحبشة.. دار الهجرة الأولى.

وحاصرت قريش المسلمين في شعب أبي طالب.. وامتد الحصار ثلاث سنين... وعانى المسلمون من هذا الحصار عناء شديداً...

وكان المهاجرون في الحبشة يتسامعون بأخبار الحصار فيألمون.. ويدعون.. ويبتهلون...

وعندما بلغهم فشل الحصار، ظنوا أن قريشاً سترفع أذاها عن

المسلمين.. فعاد نفر منهم إلى مكة.. وكانت أم سلمة وزوجها من العائدين...

وعادت قريش سيرتها الأولى في التعذيب والتنكيل والإيذاء، بل إنها زادت فيه وبالغت... حتى إنها تآمرت على قتل الرسول وأعدت لذلك خطة شيطانية...

وأمر الله رسوله بالهجرة إلى المدينة.

وأمر رسول الله أصحابه بالهجرة.

وكان أبو سلمة وزوجه أم سلمة أول المستجيبين.

وكانت قصة هجرتهما مأساة تدمي القلوب.

مأساة تدل على تحجر في قلوب أولئك الكفرة الفجرة الذين أعرضوا عن ذكر الله وناصبوا رسول الله ومن أسلم معه أشد العذاب...

* * *

احتمل أبو سلمة بأهله.. أم سلمة وابنها سلمة، وخرج قاصداً المدينة.. مهاجراً في سبيل الله... واعترض أئمة الكفر من بني مخزوم قائلين له: إلى أين يا أبا سلمة؟

قال: أهاجر من حيث الظلم إلى إخوان لي بالمدينة.

قالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها.. أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ولم يكن لبني مخزوم من عطف على صاحبتهم أم سلمة.. وما كانوا ليعطفون عليها وهي قد فارقت دينهم وآمنت بالذي أُنزل على محمد... ولكنه العداء والأذى يلتمسونه بأية وسيلة...

ورأى نفر من رهط أبي سلمة ما فعله رهط أم سلمة فهرعوا يتساءلون... ماذا أنتم صانعون؟ إياكم وأبا سلمة أن تمسود!

وتلاحى الفريقان

لم يكن بأحد منهم عطف على أبي سلمة أو أم سلمة.

إنما كانوا يتصارعون بأعراف الجاهلية.. كل يدعي الوقوف مع صاحبه...

واشتد التلاحي:

والله لا ندع أبا سلمة يخرج بصاحبتنا.. إما أن يدعها أو نأخذها منه عنوة...

ولم ينتظروا جواباً من أحد، بل أسرعوا إلى خطام البعير الذي تركبه أم سلمة وانتزعوه من يد زوجها...

وثارت الدماء الجاهلية في عروق بني عبد الأسد، رهط أبي سلمة، وقالوا في ثورة عارمة:

هذه صاحبتكم قد انتزعتموها من صاحبنا... وإننا لا ننازعكم بها.. ولكننا لا نترك ابننا عندها أبداً...

وهرع بنو عبد الأسد إلى الطفل وانتزعوه من حضن أمه.

وأبى بنو مخزوم أن يغلبهم بنو عبد الأسد على ولد أم سلمة.. أليسوا أخواله؟!

واندفعوا إلى الصغير يريدون أن ينتزعوه من بني عبد الأسد.

وتجاذب الطرفان الصغير

وعلا الصراخ... هذه أمه تبكي... والصغير يصرخ..

وأصوات الفريقين تغطي على البكاء والصراخ.

وماتت الرأفة في القلوب المتحجرة.. وغلت دماء الغضب في العروق الجاهلية.

واشتد التجاذب... وكل يتمسك بالصغير...

وأصر بنو عبد الأسد أن يذهبوا بابنهم.

وأصر بنو مخزوم أن يذهبوا بابن أختهم.

ولم يستسلم أي من الفريقين حتى نزع بنو مخزوم يد الصغير وذهبوا بهذا الجزء منه.

وذهب بنو عبد الأسد بالصغير أو بما تبقى منه...

ولم يرحم أحد أم سلمة.. ولم يرحم أحد صغيرها.

وعاد بنو مخزوم بأم سلمة إلى بيوتهم.

وعاد بنو عبد الأسَد بالصغير الجريح إلى منازلهم.

وانطلق أبو سلمة حزيناً أن فقد امرأته وابنه... ووصل إلى مهجره حيث كان ينتظر أخبار رسول الله... وأخبار ولده وزوجه المصابرة المجاهدة...

ولم يكن ببني مخزوم من حاجة لأم سلمة... ولكنهم أرادوا أن يظهروا عزتهم الجاهلية بما فعلوا.

ولم يكن ببني عبد الأسد من حاجة بالصغير ولكنهم قابلوا جاهلية بجاهلية!

ومرّ على أم سلمة سنة وهي تعاني ألم الفراق المر.. فراق الزوج والابن...

وسعى بعض من أشفق على أم سلمة إلى أهلها مستعطفاً راجياً أن يتركوها تلحق بزوجها فإنما هي امرأة.. وعار عليهم أن يحبسوها... فأطلقوها... وسعى المشفقون إلى بني عبد الأسد فردوا عليها ابنها...

ولحقت أم سلمة بزوجها بالمدينة بعد معاناة امتدت سنة... معاناة في سبيل الله، ثباتاً على العقيدة وتشبثاً بعرى الإيمان...

* * *

وأقام رسول الله دولة الإسلام في المدينة... فكانت أيامه، وأيام أصحابه كلها جهاد... وما من صاحب لرسول الله إلا وخاض غمار هذا الجهاد المبارك...

وجاهد أبو سلمة في الله حق جهاده، فخاض غمار الحروب، واصطلى بنارها. . .

وكانت أم سلمة تقوم على رعاية أولادها. . . وأفرغت جهدها في تربيتهم على الدين الحنيف.

وكانت نعم الزوجة لزوجها. . . تعد له السكن كلما عاد متعباً مجهداً من ميادين القتال.

وكان أبو سلمة محباً لأم سلمة. . . وكانت أم سلمة محبة لزوجها.

كان الأنس والحنان والمحبة مرفرفة على هذا البيت المسلم السعيد.

جلست أم سلمة إلى زوجها بعد أن عاد من إحدى معارك الإسلام وأخذت تتبادل معه أحاديث المودة. . . وتشعب الحديث الدافىء بين الزوجين، وسمت بهما روح المحبة حتى قالت أم سلمة لزوجها:

«بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، وهي من أهل الجنة، ثم لم تزوَّج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة. . . وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها. . . فتعال أُعاهدك ألا تزوّج بعدي ولا أتزوج بعدك».

ونظر أبو سلمة إلى زوجه المحبة بحنان وعطف، وقال لها: أَتُطيعيني يا أم سلمة؟

قالت: ما استأمرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك.

قال: فتزوجي. . .

وصمت قليلاً ثم قال: اللهم أرزق أم سلمة بعدي رجلًا خيراً مني، لا يحزنها ولا يؤذيها. وزادت محبة أبي سلمة في قلبها. . . ودعت له بطول البقاء.

وجاءت معركة أحد. . . وأصيب فيها أبو سلمة بجرح غائر. . .

والتمس أبو سلمة لجرحه الدواء. . . فالتأم الجرح. . .

واستأنف أبو سلمة الجهاد. . .

وأمّره رسول الله على سرية وأرسله إلى بني أسد الذين كانوا يعدون لغزو المدينة.

وأغار عليهم أبو سلمة.. وشتت جمعهم... وعاد منتصراً إلى المدينة.

ودخل بيته فاستقبلته أم سلمة كما تعودت أن تفعل كلما عاد من غزوة غزاها... ولكنها هذه المرة لاحظت عليه الإعياء... فسألته... وعرفت أن جرحه الذي جرحه يوم أحد قد انتقض عليه.

ومرض أبو سلمة واشتد به المرض.

وعندما شعر بدنو الأجل قال لأم سلمة: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «إذا أصاب أَحَدَكم مصيبةٌ فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي فآجرني فيها، وأبدلني بها ما هو خير منها».

يا أم سلمة إذا أنا مت فاعتصمي بهذا الدعاء.

ثم أغمض عينيه وقال: «اللهم أخلفني في أهلي بخير».

وانتقل المهاجر المجاهد أبو سلمة إلى الرفيق الأعلى...

وبكته أم سلمة...

وضمت بنيها إليها ودعت قائلة: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي فآجرني فيها...

وعندما أرادت أن تقول: وأبدلني بها خيراً منها.

قالت لنفسها: ومن خير من أبي سلمة؟

وترددت قليلاً... وتذكرت وصاة زوجها فقالت: اللهم أبدلني بمصيبتي خيراً منها...

* * *

كان المجتمع الإسلامي المثالي بالمدينة يأبى على نفسه أن يترك امرأة فقدت زوجها وحيدة تصارع الحياة وتسعى على أولادها... بل كانوا يسارعون إلى كسر جبرها ورعاية أولادها...

ولما انتهت أيام العدة لأم سلمة أرسل إليها أبو بكر يخطبها فردته.

وأرسل إليها عمر بن الخطاب فردته.

ثم بعث إليها رسول الله من يخطبها على نفسه فقالت: مرحباً برسول الله وبرسول رسول الله...

أخبر رسول الله أن فيَّ خلالاً لا ينبغي لِي معها أن أتزوج برسول الله... إني امرأة مُسنَّة... وإني أم أيتام... وإني شديدة الغيرة...

وأرسل لها رسول الله من يقول لها على لسانه: «أما قولك إني امرأة مسنة، فأنا أسنُّ منك، ولا يعاب على المرأة أن تتزوج أسن منها... وأما قولك إني أم أيتام، فإن كَلَّهم على الله وعلى رسوله... وأما قولك إني شديدة الغيرة فإني أدعو الله أن يذهب ذلك عنك».

وأبدل الله أم سلمة من هو خير من أبي سلمة.

وتزوجت سيد البشر... وغدت أماً للمؤمنين.

* * *

وأكملت أم سلمة طريق الجهاد مع رسول الله، فكانت تخرج معه في غزواته، تعد له كل ما يؤمن له الراحة والسكينة، فقد كانت غزواته ـ صلى الله عليه وسلم ـ متتابعة، لا يعرف فيها الراحة والسكون، كان ـ عليه السلام ـ يقارع جاهلية تجذرت في نفوس الناس، تحتاج إلى جهد وجهاد حتى تُقتلع جذورها، وحتى يُغرس في مكانها جذور العدل والخير التي جاء بها الإسلام..

وحضرت أم سلمة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غزوة الحديبية، حضرت هذه الوفود التي كانت تأتي وتذهب بين رسول الله وسادة قريش، سعياً وراء حقن الدماء التي كان رسول الله حريصاً عليها، ضنيناً بها...

وبعد مفاوضات عديدة استقر الرأي على توقيع صلح بين المسلمين وقريش، رأى كثير من المسلمين أن شروط هذا الصلح مجحفة بحق المسلمين

حتى جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله وقال له: ألست نبي الله حقاً؟

قال: بلى.

قال عمر: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال رسول الله: بلى.

قال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا إذن؟

قال رسول الله: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري.

وبعد ذلك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه: قوموا فانحروا ثم أحلقوا.

قالها ثلاث مرات... فما قلم منهم رجل واحد!

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر على مسمع من سائر الصحابة: إني رسول الله، ولست أعصيه، إشارة منه ـ عليه السلام ـ أن ما صنعه أمر من الله.. ووحي من السماء.

ومع ذلك عصا القومُ رسولَهم، من شدة غيظهم، فلم يأتمروا بأمره حين أمرهم بالنحر والحلق.

ولما رأى رسول الله ما بأصحابه دخل على زوجه أم سلمة يشكو لها ما لقي من أصحابه...

قالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك.

واستمع رسول الله ـ إلى مشورة أم سلمة، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه...

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً...

كانت هذه مشورة أم سلمة، في مرحلة حرجة وفاصلة في تاريخ المسلمين، وكانت مشورتها في مكانها.. فهي تعلم مدى حب الصحابة لرسول

الله، وتعلم أن عدم طاعتهم كان عن فرط حب لعقيدتهم وعن فرط حرص منهم على أن لا يوقعوا على ما يكون فيه الدنية في دينهم ـ كما حسبوا ذلك في شروط صلح الحديبية ـ وكانت مشورتها نابعة من معرفتها بانقياد الصحابة لرسولهم، وكان رأيها في محله فما إن رأى الصحابة رسولهم يذبح ويحلق حتى بادروا إلى ذلك...

بركة من بركات أم سلمة، الزوجة البارة الصالحة التي كافأها الله على إيمانها بدينها وصبرها على ما لاقت في سبيله من بلاء، وعلى فرط حبها وإخلاصها لزوجها، أن جعلها أماً للمؤمنين وسيدة من سيدات المسلمين تشير على رسول الله فيعمل بمشورتها، ويفرج الله بهذه المشورة كربة من كرب المسلمين...

رضي الله عنها وأرضاها، وجزاها الله عن جهادها خير الجزاء.

أمّ حَبيبَة ... بنت أبي سفيان

أم حبيبة... رملة بنت أبي سفيان بن حرب.

إنها ابنة أبي سفيان... وما أدراك ما أبو سفيان!

إنه سيد مكة المطاع... مطاع حتى لدى السادة فيها... كلمته في مكة هي الكلمة... وأمر كل السادة في مكة لأمره تَبَع...

إنه الرجل الذي وقف في وجه الدعوة الإسلامية حسداً من عند نفسه أن آتى الله النبوة رجلاً ليس من بني عبد شمس ذويه!

إنه الرجل الذي تولى قيادة جبهة الكفر في مواجهة جبهة الإيمان...

أم حبيبة ابنة هذا الرجل وفي بيئة تعودت أن تكون فيها النساء تبعاً للرجال، وقفت تعلن أنها آمنت بما جاء به محمد...

إنها إذن امرأة ذات رأي... وذات عقل يهديها السبيل...

وأم حبيبة هي زوج عبيد الله بن جحش الرجل الذي فارق دين قومه في الجاهلية واعتنق النصرانية ثم عندما جاء الله بالإسلام آمن به...

قد يقول قائل إن أم حبيبة ما آمنت بالإسلام إلا تبعاً لزوجها... وقد سبق أن قررنا قبل لحظات أن المرأة في الجاهلية كانت في كل أمورها تبعاً للرجل...

ونسارع في نفي هذا الرأي... فقد أثبتت الأحداث أن أم حبيبة كانت مؤمنة بقلبها وشعورها ولم يكن إيمانها تبعاً لإيمان زوجها... وفي الأسطر القادمة برهان ذلك...

* * *

لم يكن أبو سفيان بمكانته التي لا تبارى لينشر ظل حمايته على ابنته التي خالفت رأيه واتبعت عدوه... بل إنه رأى في موقفها ما يستحق اللوم.. بل العقاب...

لهذا ضاقت مكة بأم حبيبة كما ضاقت بغيرها من المؤمنات والمؤمنين...

ونصح رسول الله لما رأى ما يلاقيه أتباعه من عنت أن يهاجروا إلى الحبشة...

وهاجرت أم حبيبة وزوجها عبيد الله بن جحش...

وهناك التقى عبيد الله بمن كان على دينهم من قبل... التقى بالنصارى الذين دعوه للعودة إلى النصرانية...

ولعله رأى ما عليه المسلمون من فقر وما هم فيه من ضنك... ورأى ما عليه النصارى من بحبوحة في العيش وسعة في الرزق.. فآثر العافية على الجهاد... فارتد!

وهو في ارتداده إلى النصرانية أحب أن تتبعه زوجه أم حبيبة... أليست النساء تبعاً للرجال في كل شيء؟

ألم تفارق أم حبيبة دين آبائها إذ آمنت بالإسلام معه؟

قال عبيد الله لأم حبيبة: يا أم حبيبة قد رجعت إلى النصرانية. فهل لك أن تفعلي كما فعلت؟

قالت أم حبيبة وقد هالها ما سمعت وفزعت فزعاً شديداً: والله يا عبيد الله ما خِير لك...

وحاولت أن ترده إلى رشده فما رشد.

وأكب على الخمر يعب منها حتى مات!

هذه إذن أم حبيبة ذات العقل الراجح.

إنها ما آمنت بالله ورسوله تبعاً لأحد ولا حباً في مخالفة أحد، بل آمنت لما رأت بثاقب رأيها أن ما يدعو إليه محمد حق... وأن اتباعه هو اتباع للطريق القويم...

كان ارتداد زوجها صدمة لها... لقد تركها ومعها وليدتها حبيبة ليس لها من تلجأ إليه غير الله... فقد خالفت أباها وأسلمت.. وخالفت زوجها وثبتت على إسلامها...

ولا نشك بأنها لاقت مواساة إخوانها المسلمين المهاجرين معها... ولكنها تبقى في شعور المرأة التي فقدت الناصرين: الوالد والزوج...

* * *

ووصل خبر هذه الفاجعة المؤلمة إلى أسماع رسول الله بالمدينة، فأسرع إلى جبر ما انكسر من فؤاد هذه المرأة المؤمنة...

استدعى إليه ساعيه: عمرو بن أمية الضمري، وأرسله إلى النجاشي ملك الحبشة يطلب منه أن يزوجه من أم حبيبة...

وصدع النجاشي بما أمره رسول الله...

وأرسل إلى أم حبيبة بالخبر مع احدى جواريه...

ونزل الخبر برداً وسلاماً على فؤاد أم حبيبة.

وشعرت بأن هماً كبيراً قد انقشع عن فؤادها وأن جبلاً عظيماً قد انزاح عن كاهلها...

واستدعى النجاشي من عنده من المسلمين.

وأعلمهم بالذي أمره به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم..

وتهللت وجوه المسلمين.

وتهلل من بينها وجه خالد بن سعيد بن العاص أكثر مما تهللت به سائر الوجوه... فقد كان في هم كبير إذ يرى ابنة عمه في ضيق شديد ولا يستطيع أن يفرج عنها هذا الضيق بأكثر من كلمات يواسيها بها...

وكيف لا يتهلل وجه خالد بن سعيد وقد تولى بنفسه في مجلس النجاشي أمر زواج ابنة عمه برسول الله.. وكيف لا يطير فرحاً وقد غدا بهذا النكاح موصول العرى برسول البشرية أجمعين.

وكان يوم زواج أم حبيبة في مجلس النجاشي يوماً مشهوداً.

وخرجت أم حبيبة من مجلس النجاشي وكلها بشر وسرور.

وكيف لا تكون كذلك وقد أبدلها الله بزوجها المرتد سيد الأولين والآخرين.

وأقامت أم حبيبة بالحبشة مع المهاجرين بانتظار أمر رسول الله لهم بالهجرة إلى المدينة وعندما جاء الأمر طاروا فرحاً.. وأسرعوا يودعون النجاشي وينطلقون إلى المدينة...

واستقبل رسول الله مهاجري الحبشة فرحاً وقد فتح الله عليه خيبر.

وعبر رسول الله عن فرحته الغامرة بعودة هؤلاء المهاجرين الأولين قائلاً: «والله ما أدري بأيهما أنا أَسَرُّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر».

وسُجل في صفحة الجهاد الإسلامي لهؤلاء النفر العائدين من الحبشة هجرتان.

وغدت أم حبيبة أم المؤمنين وذات الهجرتين...

* * *

وسارت الحياة بأم حبيبة في بيت النبي رخاء، لا يكدرها إلا ما تراه من صد ونفور من أبيها عن الدين الحق...

ولطالما منت أم حبيبة نفسها بإيمان أبيها.

فقد كانت ترى في أبيها رأياً وعقلاً.

ولكن الأيام تكر وأبوها مقيم على عناده.

ويعقد صلح الحديبية.

وتهدأ نفس أم حبيبة قليلاً، فربما كانت الهدنة فرصة لأبيها كي يراجع نفسه وربما هداه عقله إلى الإيمان وحقن دماء قريش وحلفائها...

ولكن النذر قد أفزعت أم حبيبة.

فقد نقضت قريش صلح الحديبية.

وها هو رسول الله يعد خزاعة بنصرها.. ولا يعني هذا إلا فتح مكة..

وارتجت أرجاء الجزيرة بالأنباء.. وكثرت فيها التوقعات...

وخشيت قريش مغبة ما فعلت، وأحبت أن تتلافى الأخطار الناجمة عن فعلتها.

وقررت أن ترسل أبا سفيان بن حرب، والد أم حبيبة، إلى المدينة ليؤكد الصلح ويزيد في مدته.

وأين ينزل أبو سفيان إذا أتى المدينة إن لم ينزل على ابنته أم حبيبة.

وهل من طريق أقصر من بيت أم حبيبة لمقابلة الرسول؟

إذن فقد عزم أبو سفيان إذا وصل إلى المدينة أن يدخل على ابنته لعلها تكلم زوجها رسول الله فتشفع لقريش عنده...

ورأى أبو سفيان أن هذا هو الرأي!

وصل أبو سفيان إلى المدينة المنورة.

وتلفت يمنة ويسرة.. فرأى حركة دؤوباً تشمل كل أرجاء هذه البلدة.. وعهده بها قبل سنوات هادئة ساكنة لا تكاد ترى في طرقاتها من حركة أو نشاط...

ولعله قارن، وهو يتصفح الوجوه، ما رآه عليها من أمارات الثقة وعلامات

الجد والاجتهاد وما رأى وهو يغادر مكة على وجوه قريش من وجوم وترقب.

ولم يطاوعه قلبه لكي يستمر بالمقارنة، ولعله صرف تفكيره إلى ما جاء إليه، فعمد إلى بيت ابنته أم حبيبة.

وكانت مفاجأة لأم المؤمنين أن ترى أباها أمامها.

فوقفت صامتة لا تكلم...

ولعل أبا سفيان قد قدر الموقف... والتمس لابنته العذر أنها لم تدعه إلى الجلوس... فتقدم ليجلس على الفراش المبسوط في ركن الحجرة...

وما راعه إلا ابنته تطوي الفراش عنه!

ووقف أبو سفيان حائراً إزاء ما فعلته ابنته.

وسألها عما فعلت: أرغبت يا بنية بهذا الفراش عني أم رغبت بي عنه؟

هل كان طيك للفراش لأنك لا تودين أن أجلس عليه أم أنك طويته لأنك ترين أنه لا يليق بمكانتي؟

وأجابت أم المؤمنين بثبات وثقة: بل هو فراش رسول الله وأنت امرؤ مشرك نجس!

وذهل الرجل.

هل هذه هي ابنته؟

هل لمثله يقال مثل هذا الكلام؟

إن كل بيت من بيوت العرب ليتمنى أن يدخله أبو سفيان، إذن لفرشوا له أفخر الفراش وأوثره... فلماذا إذن فعلت ابنته ذلك...

إذن فقد أصابها بعده شرّ!

هكذا قال أبو سفيان لابنته: لقد أصابك بعدي شرّ.

وإلا فكيف سولت لها نفسها أن تطوي عنه الفراش، وهو أبوها... وسيد قريش!

وأم حبيبة لا زالت تقول له: إنه فراش رسول الله.. وإنك مشرك نجس.
ولعله لم يدرك ماذا تعني هذه الكلمات.

ومع عدم إدراكه لما تعني فقد صرف عن تفكيره ما كان انتواه من جعل ابنته شفيعة له عند رسول الله...

وانطلق من بعد إلى أبي بكر فعمر فعلي... وكلهم رده وصده.
وعاد إلى مكة يجرر أذيال الخيبة والفشل...
واستمر المسلمون في الاستعداد للفتح الأكبر...
ولم تمض أسابيع حتى فتحت مكة وارتجت أرجاؤها بالنداء الخالد: الله أكبر.. الله أكبر.

* * *

وأسلم أبو سفيان.
كان لهذا النبأ وقعه الجميل على اذن أم حبيبة.
وأخيراً تم لها ما تمنت، واكتملت سعادتها بإيمان والدها...
وعاشت أم حبيبة حتى أسنت.
وعندما مرضت مرضها الذي ماتت فيه دعت أم المؤمنين عائشة، فقالت لها: «قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك».

قالت عائشة: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز، وحلَّك من ذلك.
وتهلل وجه أم حبيبة وقالت: سررتني سرَّك الله.
وأرسلت كذلك إلى أم سلمة.
وقالت لها مثل ما قالت لعائشة.
وأجابتها أم سلمة بالذي أجابتها به عائشة.
ورددت أم حبيبة لأم سلمة ما قالت لعائشة: سررتني سرك الله.

* * *

هذه سيدة من سيدات المسلمين.. آمنت بالله وقد كان أبوها كافراً بل قائد جبهة الكفر، فلم يمنعها ذلك من الإيمان بعد أن رأت أنه الحق...

وثبتت على دينها عندما زلت قدم زوجها فهوى في حمأة الكفر. وهاجرت وصبرت وكتبت لها هجرتان.. واحدة إلى الحبشة وأخرى إلى المدينة.

ولم تنس إيمانها في لحظة تتحكم فيها العواطف بعقل الإنسان... عندما رأت أباها فجأة في بيتها بعد بعاد دام سنوات...

وأرادت أن تلاقي ربها مبرأة من كل ما قد يشين إيمانها.. فتحللت من ضرتيها وعفت وعفتا عما كان يحدث بينهن مما يحدث عادة بين الضرائر..

رحم الله أم حبيبة.. أم المؤمنين..

زينب بنت جحش... المرأة القرآنيّة

زينب بنت جحش الأسدية المضرية، إحدى نساء مكة وشريفاتها، أمها أميمة بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزينب بنت عمة رسول الله... أسلمت زينب وآل جحش جميعاً في وقت مبكر، وقد أضافوا بإسلامهم وتسجيلهم أسرتهم كلها في سجل الإيمان، شرفاً إلى شرف...

هاجرت زينب إلى المدينة ـ المنورة برسول الله ـ مع من هاجر من أهلها، وقد بلغت سن الزواج، وغدت شابة يتطلع إليها السادة والأشراف.. وهي بالإضافة إلى شرف المحتد ذات جمال يتحدث به من عرفها من النساء والرجال...

وكان زيد بن حارثة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أقرب الناس إلى قلبه، فما إن استقر الرسول بالمدينة حتى تطلع إلى اختيار زوجة لزيد...

واختار رسول الله لحبه زيد ابنة عمته زينب بنت جحش...

اختار رسول الله لزيد المولى شريفة من شريفات مكة، وسيدة من سيدات المجتمع الرفيع... وابنة عمته.

واستهجن الناس أن يتزوج المولى من الشريفة، فما عهدهم في جاهليتهم أن يحدث هذا، بل ما فكر أحد أن يحدث مثل هذا ذات يوم. . .

ولكن الإسلام أبطل مفاهيم وأحل مكانها مفاهيم أخرى. . .

ولكن. . ما لنا وللقوم الذين استهجنوا هذا الزواج. . . وما لنا ولما ذهبوا إليه من آراء، إنما يهمنا موقف زينب وآل زينب. . .

وهل زينب إلا من هؤلاء القوم وهل آلها إلا منهم. .؟

وأنف عبد الله بن جحش أن يزوج أخته بزيد.

وأنفت زينب ـ وهي الشريفة ـ أن تتزوج بزيد. . وهو المولى. . .

وعندما حدثها رسول الله عن زيد وحبه له وتقدمه بالإسلام وإخلاصه لله ولرسوله قالت زينب:

«يا رسول الله. . لا أرضاه لنفسي وأنا أيّمُ قريش».

ويقول لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فإني قد رضيته لك».

ولكن زينب استعظمت أن تكون زوجاً لزيد وهو مولى.

ونزل الأمر من السماء: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم، ومن يعصي الله ورسولَهُ فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾[1].

وأذعنت زينب لأمر الله ورسوله. . وأذعن بنو جحش لأمر الله ورسوله. . . وعرف الناس أن هذا الزواج بأمر السماء. . .

وتزوجت الحسيبة النسيبة. . . الشريفة. . . بل باذخة الشرف من زيد بن حارثة المولى. . . وسجل الإسلام العظيم صفحة من نور في سجل البشرية. . لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى. . سجل هذه الصفحة في مجتمع كان يقدس الأنساب ويؤمن إيماناً راسخاً بالطبقات وفي زمن كانت سيادة هذه الأفكار جزءاً

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

من كيانه ومسلَّمة من مسلماته. . .

وكان مما شرف الله به زينب بنت جحش أن جعل هذه الصفحة الناصعة المتلألئة جزءاً من سجل حياتها وصحيفة أعمالها. . .

* * *

تزوجت زينب بزيد بن حارثة. . . زيد الذي كان يقال له زيد ابن محمد. . . نسب إليه عندما تبناه على ملأ من قريش وبحضور أبيه وعمه.

ولم يقدر الله لهذا الزواج أن يتآلف. . فزينب تزوجت بزيد امتثالاً لأمر الله ورسوله، وزيد يشعر بأن زوجه لا تكن له حباً وأن زواجها به كان رغماً عنها. . .

كان هذا الإحساس يؤنبه. . . يعذبه. . . فكان يود إنهاءه. . . وكان يفضي بمكنون قلبه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وفي كل مرة يقول له الرسول: أمسك عليك زوجك.

ويشاء الله أن يزيد في إكرام هذه المرأة الصالحة. . .
فأبلغ رسوله أن الله قد اختارها له زوجاً. . .
وما كان رسول الله ليخالف أمر الله. . . ولكنه أسرّ ذلك في نفسه ولم يبده. . .
ولكن حكمة الله وإرادته لا بد أن تنفذ.
وطلق زيد زينب عن رغبة ملحة في هذا الفراق.
وأعلن الرسول أن الله أمره بالزواج منها. . .

وتحدث الناس أن محمداً سيتزوج مطلقة ابنه. . . ألم يكونوا يدعونه زيد ابن محمد؟

ونزلت آيات الكتاب المبين تبين حكماً جديداً. . . ما كان للابن المتبنى حكم الابن الصليب. . . وما كان يجوز في شرع الله أن يدعى الإنسان إلا لأبيه الذي ولده. . .

وتزوج رسول الله بزينب، وعاد الناس يدعون زيداً لأبيه.. زيد بن حارثة.

يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر الله مفعولاً﴾[1].

أي شرف هذا الذي حازته زينب.. زواج بأمر السماء... وقرآن يتلى ويتعبد به آناء الليل وأطراف النهار، ومثل إسلامية ترسى من خلال حياتها الشريفة العظيمة...

وكانت زينب مدركة لهذا الشرف العظيم الذي حازته، وكانت تدل به وتفاخر، قالت لرسول الله يوماً: «يا رسول الله إني والله ما أنا كأحدٍ من نسائك، ليست امرأة من نسائك إلا زوّجها أبوها أو أخوها وأهلها غيري، زوجنيك الله من السماء».

وكانت تباهي بذلك أزواج النبي وتقول لهن: «زوجكنَّ أهلكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات».

* * *

واحتفل رسول الله بزواجه... فأولم بشاة...

أولم رسول الله بشاة واحدة.. ومع ذلك تحدث الرواة عن هذه الوليمة وكأنها حدث كبير.. فما أولم رسول الله من قبل بمثلها...

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

شاة واحدة. . لزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم الرسل وخاتمهم. . .

وماذا نقول عن ولائم اليوم؟

لقد وصلت المبالغة الممقوتة والتفاخر التافه بين الناس أن أولم أحدهم بالملايين من الدنانير. . . أولم ثم ألقى بما أولم في البحر. . . ألقى بالملايين في البحر، والملايين من المسلمين في إفريقيا وآسيا يموتون من الجوع. . .

أيُّ بركةٍ بعد هذا ننتظر أن تحل بنا؟

* * *

أولم رسول الله بشاة. . ودعا كل من في المسجد ثم كل من بالمدينة إليها. . .

أكلوا. . وبارك الله فيما أكلوا. .

أكل الجميع. . ثم انصرفوا إلا أقلهم.

وانتظر رسول الله أن يخرج مَنْ عنده حتى يخلو بأهله.

وطاب المجلس لبعضهم، وخرج رسول الله مِن عندهم، وغاب عنهم زمناً ثم عاد. . . والرجال يستغرقهم الحديث، ورسول الله بحيائه ودماثة أخلاقه لا يأمرهم بالانصراف. . .

وطال حديثهم. . . ولم يأمرهم بشيء. . . ولما انصرفوا خلا بأهله. . .

وأنزل الله بعد ذلك قراناً. . ينظم طرفاً من حياة المسلمين الاجتماعية. . ثم يفرض الحجاب على أزواج النبي وعلى المسلمات. . .

أي بركة وأي خير أتانا من هذه الزوجة الصالحة. . .

إنها زينب الورعة التقية المحتسبة. . .

لقد أنزل الله تعالى في بيت زينب: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناهُ ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا

طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم، والله لا يستحيي من الحق، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾[1].

كان زواج زينب من زيد بأمر من الله وبقرآن يتلى.

وكان زواج زينب من رسول الله بأمر من الله وبقرآن يتلى.

وكان حكم الاستئذان وتنظيم الولائم للمسلمين بقرآن يتلى نزل في بيت زينب وفي المناسبة التي تزوجت فيها.

وكان فرض الحجاب على أمهات المؤمنين وعلى المسلمات بقرآن يتلى نزل في بيت زينب وعند زواجها فأي منزلة تحتلها هذه المرأة القرآنية.

وأي شرف للمرأة المسلمة أضافته هذه المرأة الصالحة التي صدعت بأمر القرآن في كل شأن من شؤونها...

وأي شرف للمرأة المسلمة أن تصدع بالقرآن اقتداء بأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها وأرضاها، وجزاها عن كل امرأة مسلمة خيراً وبراً..

* * *

وعاشت زينب في كنف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت منصرفة إلى عبادتها، تكثر منها، ولم يعرف عنها أنها دخلت فيما كان بين أزواج النبي من منافسة تدفعها الغيرة الفطرية في النساء، فقد كفاها إيمانها ثم جمالها وحب الرسول لها.

وشغلت وقتها بعد العبادة برعاية الفقراء والمساكين، فقد كانت زينب امرأة صَناع، تجيد صناعة الدباغة والخرز، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق بكل ذلك في سبيل الله...

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

زينب بنت جحش أيِّم مكه، وشريفة من شريفاتها، وزوج الرسول الأعظم. . . تدبغ وتخرز بيديها ثم تبيع ما تدبغه وتخرزه. . وتنفق كل ذلك على الفقراء والمساكين. . أليس في سيرة هذه المرأة قدوة؟ ألا تلتفت نساء المسلمين اللواتي جنحن إلى الخمول وانصرفن عن واجباتهن حتى في تربية الأطفال إذ أوكلوا هذا الأمر المهم إلى خادمات أجنبيات الدين واللغة والحضارة. . ألا ترعوي هؤلاء النسوة فتأخذن القدوة عن أمهات المؤمنين. . القانتات العابدات العاملات المعلمات؟

ثم إن زينب ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، وكذلك أمهات المؤمنين، كن يحرصن الحرص كله على القرب من الرسول حياً وميتاً، يتنافسن في ذلك ويبالغن في التنافس. . .

روت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله قال لنسائه وقد اجتمعن حوله: «أسرعكن بي لحوقاً أطولكن باعاً».

وعندما توفي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت نساؤه يجتمعن ثم يتذارعن. . . تقيس المرأة ذراع الأخرى ليعرفن أيهن أطول باعاً وأيهن أسعد بلحوقها برسول الله صلى الله عليه وسلم. . .

نعم كل واحدة منهن تتمنى أن تكون أسرع من الأخرى لحوقاً برسول الله. . .

وكان أول من لحق به من نسائه زينب بنت جحش.

ولم تكن زينب أطولهن ذراعاً. . . ولكنها كانت أطولهن باعاً في الصدقة. . أكثرهن تصدقاً. . وهذا الذي أراده رسول الله فعليه أفضل الصلاة والتسليم.

وعندما توفيت زينب قالت عائشة عنها: لقد ذهبت حميدة فقيدة. . مَفْزَع اليتامى والأرامل. . .

ونحن ندعو نساءَنا الموسرات أن يكن مثل زينب مفزع اليتامى والأرامل.
وندعو نساء المسلمين عامة أن يكن كزينت عبادة وخلقاً وحميد سيرة. . .

أسمَـاء... ذاتُ النِّطاقـين

في فجر الدعوة الإسلامية تميزت أُسرٌ مكية جاهدت في سبيل هذا الدين حق الجهاد، فقدمت أنفسها، وبذلت أموالها، ولم تألُ جهداً في سبيل نشر هذا الدين الحنيف.

على رأس هذه الأسر أسرة الرسول الأعظم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقد شمرت خديجة ـ رضي الله عنها ـ عن ساعد الجد منذ اللحظة الأولى التي علمت فيها بنزول الوحي على زوجها العظيم، وأسلمت بناته جميعهن، ووازرنه بكـل طاقتهن، فما بالين في سبيل هذا الدين بزوجٍ أو ببيت أو براحة. .

ثم أسرة الصديق ـ رضي الله عنه ـ فما إن عرض عليه الرسول دعوة الإسلام حتى بادر فاستجاب، وكان سباقاً لكل خير، وما إن دُعي إلى البذل حتى أنفق ماله كله في سبيل الله، وآمنت زوجه، وآمنت بناته، وآمن بنوه، وكلهم بذل وكلهم صبر، وكلهم جاهد. . .

ثم أسرة ياسر، فقد آمن آل ياسر فأوذوا وعذبوا حتى بلغ بهم الأذى والعذاب مبلغه، فقد استشهدت سمية زوج ياسر، فكانت أول شهيد في الإسلام، فلم يثن ذلك ياسراً، ولا ابنه عماراً، فثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، وتابعوا الطريق حتى نصر الله رسـوله وأعز جنوده.

ثم آل جحش، آمنوا فأوذوا، فما وهنت عزيمتهم ولا عيل صبرهم، حتى أذن الله بالهجرة، فهاجروا رجالاً ونساءً حتى خلت دورهم من ساكنيها، فاستولى عليها أبو سفيان بن حرب، فاحتسبوها في سبيل الله...

هذه أمثلة للأسر المكية المؤمنة في فجر الدعوة المباركة.

لقد كان أفراد هذه الأسر منارات إيمان، وأمثلة تضحية عز نظيرها على الزمان، ولقد تميز من بين أفراد هذه الأسر رجال ونساء، سجلت لهم صحائف الخلود مواقف إيمانية فذة تحدثت عنها أجيال المسلمين بعزة وفخار.

لقد تناول المؤلفون مواقف الرجال من هذه الأسر، وأفاضوا في الحديث عنهم، ولكن قليلاً من هؤلاء المؤلفين تحدث عن النساء، ولقد ظهر في كل أسرة من هاتيك الأسر التي ذكرناها نساءً كان لهن باع طويل في الجهاد في سبيل هذا الدين.

فآل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فيهم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وكان فيهم زينب الكبرى بنت رسول الله ـ عليه الصلاة وأفضل السلام، وكان فيهم من بعد فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها.

وآل ياسر كان فيهم أول شهيدة في الإسلام سمية بنت خُباط، زوج ياسر، وأم عمار.

وآل جحش كان فيهم زينب بنت جحش المرأة القرآنية وزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

وآل أبي بكر كان فيهم أسماء ذات النطاقين، وكان فيهم من بعد عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنهم أجمعين.

إن كل واحدة من هؤلاء النسوة المجاهدات تحتاج منا إلى وقفات، وتحتاج منا إلى دراسات، حتى نأخذ القدوة ونقدمها إلى فتياتنا المسلمات.

لقد قدمنا في هذا الكتاب سطوراً مضيئة عن حياة الجهاد الذي عاشته

هؤلاء الفضليات: خديجة، وزينب الكبرى، وفاطمة وعائشة وزينب بنت جحش وسمية بنت خُباط.

أما أسماء بنت الصديق فهي مثال رائع، وقدوة تُحتذى، فقد سبقت إلى الإيمان، وجاهدت في سبيل الدعوة حق الجهاد، قدمت من ذاتها وقدمت من أبنائها، وثبتت في المواقف التي يزل فيها كثير من الرجال.

أسماء... بنت أبي بكر..

إن عظمة هذه السيدة مستمدة من عظمة أبيها الصديق..

لقد كان أبو بكر في الجاهلية رجلًا وجيهاً، كان ذا مال، وكان ذا خلق، وكان ذا علم، وكان ذا أمانة...

وعندما عرض عليه رسول الله الإسلام بادر فاستجاب، ذلك لأن بذرة الخير فيه أصيلة، واستعداده للإيمان فطري نقي...

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مبادرة أبي بكر إلى الإيمان والتصديق بالدعوة: **«ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عَتَمَ عنه حين ذكرته وما تردد فيه»**.

هكذا كان إيمان أبي بكر بلا تردد.. ولقد كانت هذه سجيته ما دعي إلى خير فتردد فيه، وأي خير هو أفضل من خير هذه الدعوة المباركة..

ولم يكن إسلام أبي بكر إسلام رجل واحد.. كلا فقد كان إسلامه إسلام رجال ونساء آخرين، فقد عرض الإسلام على زوجه وبناته وبنيه، فاستجابوا، وعرض الإسلام على أصدقائه المقربين فلبوا، ودعا في بطاح مكة إلى الإيمان لا يثنيه سخرية الساخرين ولا أذى المبطلين، فاستجاب له من ذوي القلوب المتفتحة نفر كانوا نواة الإسلام وزهرته التي تفتحت وعبقت على الناس أجمعين...

وكما جاهد أبو بكر بلسانه وأهله كذلك جاهد بماله، فأنفقه كله في سبيل

الله، وكان أبو بكر ذا مال، بل كان من أكثر قريش مالا...

هذا هو أبو بكر والد أسماء... وكانت أسماء في الإيمان والجهاد بنت أبيها...

* * *

ابنة الرابعة عشرة تحس أن أمراً جللًا يحدث في مكة، وأن أباها على صلة بالحدث، فقد شعرت أن أباها قد شغله شيء جديد غير ما كان يشغله من قبل، ودنت من أبيها تريد أن تعرف ما الأمر وما الحدث، وعندما شرح لها أبوها ما تدعو إليه رسالة الإسلام بادرت إلى الإيمان وبايعت سيد الأنام..

قالوا: كانت أسماء في أمة الإسلام الثامنة عشرة.. فقد أسلم قبلها سبعة عشر إنساناً...

إنها من السابقات والسابقين.. فما أعظم هذا الشرف الذي نالته والسؤدد الذي أحرزته...

لقد بدأت أسماء عهداً جديداً، عهد الحياة الإسلامية الدافقة، حياة الجهاد والعمل من أجل أسمى المبادىء التي عرفتها الأرض...

وانخرطت أسماء في صفوف المسلمين، تساهم فيما تستطيع أن تساهم فيه، كان الإسلام قد شرع في نشر قلوعه، يبث مبادئه ويبني كيانه، وكيانه هو الأسرة المسلمة التي تطوي جوانحها على حب الإسلام، وترفع بسواعدها رايات الجهاد في سبيله...

وكانت أسماء من أوائل النساء اللائي حظين بشرف بناء الأسرة الإسلامية...

كانت في سن الزواج، يتطلع إليها كل قرشي معرق في النسب، ويتمنى أن تكون له زوجاً، ولكن الأحوال في مكة قد تبدلت، فلم يعد أحد من

المسلمين يتطلع لأن يصهر لأحد من المشركين، ذلك لأن كل جانحة من جوانحهم كانت تخفق بحب الإسلام وتود لو بذلت كل جهدها ومالها في سبيله، فما كان لهم أن يصهروا لأحد من المشركين وفيهم رجالهم ذوو الإيمان، وعلى الإيمان وحده تقوم دعائم الإسلام العظيم.

تقدم الزبير بن العوام إلى أبي بكر الصديق يخطب إليه ابنته أسماء...

ولم يتردد الصديق أن يجيب الزبير بالقبول، فقد كان الزبير واحداً من شباب الإسلام، وممن يشهد له بالإيمان والإخلاص والتضحية في سبيل هذا الدين.

الزبير رجل معرق في النسب.. إنه ابن العوام بن خويلد.. والعوام أخو خديجة زوج رسول الله، فخديجة عمة الزبير، والزبير هو ابن صفية بنت عبد المطلب، أخت حمزة وعمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

توفي العوام والزبير صغير، فتولت تربيته أمه صفية، وكانت صفية امرأة صارمة، أحبت أن ينشأ ابنها رجلاً فارساً مهاباً، فعلى ذلك ربته، وكذلك غدا الزبير فارساً يشار إليه بالبنان...

والزبير واحد ممن رسخ الإيمان في قلوبهم فأصبحوا جنوداً لهذا الدين العظيم، وكان كذلك ذا خلق متين مشهود له بذلك بين المسلمين... وإذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه... وقد أتى أبا بكر من يرضى دينه وخلقه... فزوجه...

والتأم شمل الزبير وأسماء، وانطلقا معاً في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدين.

وماجت قريش بالعداء للإسلام ورسوله ورجاله، وبالغت في إيذاء المسلمين، وحالت دون رسول الله ورجال العرب ممن يتوافدون على مكة، فصدتهم عن الاستماع إليه... ثم لما طال الأمد عليها ورأت أن الإسلام ينمو

ويعلو وأن الكفر يضمحل ويهبط قررت أن تتخلص من شخص الرسول. . .

وجاء الأمر إلى رسول الله بالهجرة من مكة إلى المدينة. . .

وأمر رسول الله المسلمين بالهجرة، فانطلقوا يهاجرون زرافات ووحدانا. . .

وانطلق الزبير إلى زوجه أسماء. . . وأبلغها أنه عزم على الهجرة. . .

ونظرت إليه أسماء ملياً ثم قالت له: على بركة الله. . . وانطلقت تعد له زاد الطريق. . . وعندما هم الزبير بمغادرة البيت زفت إليه أسماء ما أفرحه وسرَّه. . . إنها حامل بمولودها الأول منه. . .

وامتلأت نفس الزبير بالبهجة والسرور، إذن سوف يكون لنا ولد يأتينا من أول يوم مسلماً. . . إنه لنبأ عظيم سوف أزفه إلى سائر المسلمين. . .

وانطلق الزبير إلى المدينة وقد خلف وراءه زوجه وجنينه، انطلق مهاجراً بدينه ليساهم من هناك في مرحلة جديدة لبناء صرح الإسلام العظيم.

وبقيت أسماء في بيت أبيها تنتظر ما هو فاعل بنفسه وبأهله. . .

وانتظر أبو بكر مع أسرته ما يأمره به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فما كان أبو بكر ليفعل شيئاً إلا أن يأذن له به رسول الله. . .

وجاء رسول الله إلى بيت الصديق، فاستقبله مرحباً، متوقعاً حدثاً مهماً، ذلك لأن رسول الله جاءه في وقت لم يكن يأتيه فيه.

كان في البيت أبو بكر وابنتاه. . . عائشة وأسماء.

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر: «أخرج عني من عندك».

قال أبو بكر: إنما هما ابنتاي يا رسول الله، وما ذاك فداك أبي وأمي؟

قال عليه السلام: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة».

قال أبو بكر متلهفاً: الصحبة يا رسول الله.

إذن سوف يهاجر رسول الله وقد فاز أبو بكر بشرف صحبته في هجرته.
وأخذ أبو بكر يعد العدة لتنظيم أمور الهجرة.
أعد راحلتين لتنقلهما في رحلة الهجرة.
دعا أولاده وابنتيه وشرح لهم أمر الهجرة وأوصاهم بالكتمان الشديد.
ثم أوكل لكل منهم مهمة محددة يقوم بها تسهيلاً لأمر الهجرة وتأميناً لنجاحها...

كانت مهمة عبد الله الشاب الصغير الاختلاط بالمجتمع المكي وتعرف ما يدور بها ثم ينقل ذلك لأبيه حتى يعرف ما تدبره قريش فيحذره.

أما أسماء فكانت مهمتها تزويد المهاجرين الكريمين بالزاد في كل يوم في المكان الذي يكونان فيه.

كان الكتمان أهم ما أوصى به أبو بكر ابنه وابنته.

وبدأت رحلة الهجرة.. الرحلة التي بها بدأت مرحلة جديدة من تاريخ الدعوة الإسلامية، مرحلة كان لها أثرها على العالم المعروف آنذاك، وكان لها صداها في دنيا الإنسان، وسيبقى هذا الصدى إلى أن يأذن الله بانتهاء الحياة على الأرض...

هذه الهجرة المباركة ذات الأثر البعيد في حياة الإنسانية كان لأسماء بنت أبي بكر فيها مساهمة وجهد سيبقى أبداً علامة بارزة في حياة المرأة المسلمة، ودلالة كبرى على مدى ما يمكن أن تساهم به المرأة في الأحداث الجسام.

وآوى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور، ينتظران حتى يخف الطلب عنهما، فقد كانت قريش قد نفرت برجالها تبحث عن الرسول وصاحبه تريد أن تفتك بهما...

وكان عبد الله بن عمر يتسقط أخبار فريش حتى إذا حل المساء انطلق إلى غار ثور مع أخته أسماء التي أعدت الزاد للمهاجرين الكريمين وعرفت من أخبار

قريش ما تناقلته نساؤها، فإذا ما فرغ عبد الله وأسماء من مهمتهما عادا إلى منزلهما بمكة يتبعهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بغنمه ليعفيّ على آثارهما.

كان العمل يتم بسرية تامة، وقد كان عبد الله وقد كانت أسماء محل الثقة وأهلها، قام كل بدوره على أحسن ما يرام...

وعندما استعد رسول الله وصاحبه للانطلاق من غار ثور إلى المدينة أعدت أسماء لهما زاد الرحلة، ولما همت بتعليقه على الناقة لم تجد ما تربطه به، فحلت نطاقها ثم شقته نصفين، ربطت بالنصف الأول الزاد، وربطت بالنصف الآخر السقاء، ولما رأى رسول الله ما فعلت أسماء، أكبر فيها إخلاصها لله ورسوله، ودعا لها قائلاً: «أبدلك الله عز وجل بنطاقك هذا نطاقين في الجنة».

ومنذ هذا الحدث العظيم عرفت أسماء المجاهدة بذات النطاقين...

ذات النطاقين، أي وسام هذا الذي عقده رسول البشرية لهذه الفتاة المجاهدة، وأي فخر ألبسها رسول الإسلام ـ صلوات الله عليه ـ، إنه وسام الجهاد وإنه فخار الإسلام...

إن هذا الوسام الرفيع الذي قُلدته أسماء في يوم الهجرة العظيم لشرف عظيم تتيه به المرأة المسلمة على مرّ العصور، وإنه لدعوة إلى كل فتاة مؤمنة أن تحاول لتحظى بوسام جهاد وفخار في سبيل دينها الكريم، وإن في دنيا المسلمين اليوم لمجالات لا تعد ولا تحصى تستطيع الفتاة المسلمة أن تساهم فيها وتنال فيها أوسمة الفخار...

* * *

وعادت أسماء تغمرها فرحة لا تحد بهذا الشرف الذي نالته، ودخلت على أختها عائشة والبشر يغمر وجهها، وكادت تحدث أختها بذلك عندما سمعت طرقاً عنيفاً على الباب... وعندما فتحت الباب وجدت أمامها عينين تكادان تقفزان من محجريهما غيظاً وحقداً. وجدت أبا جهل يقف وخلفه عدد من

رجال قريش... وعاجلها أبو الجهل بسؤاله: أين أبوك يابنة أبي بكر؟ قالت بهدوء: لا أدري أين أبي...

وأطاش الحقد عقل الرجل، فرفع يده ولطم الفتاة بقوة على وجهها.. ومن شدة اللطمة سقط قرطها من أذنيها...

يا للخسة والجبن... هل كان باستطاعة أبي الجهل أن يلطم أسماء لو كان أبوها حاضراً أو لو كان زوجها الزبير موجوداً؟..

واستأسد أبو جهل على أسماء بنت أبي بكر.

ومن قبل استأسد هبار على زينب بنت الرسول.

لقد فقدت قريش رشدها فلم يَعد للقيم عندها من اعتبار...

بل لقد غدت نساء المسلمين مجاهدات في سبيل الله يرى فيهن رجال الكفر خطراً على الوثنية كما يرون ذلك الخطر في الرجال من المسلمين..

وانصرف أبو الجهل خاسراً، ودخلت أسماء منزلها ظافرة.. لقد حفظت سر الرسول المهاجر بالدين إلى حيث المنعة والعزة والانطلاق إلى نشر الدعوة في أرجاء الكون...

وبقيت أسماء في بيت أبيها في انتظار الأخبار عن الرسول وعن أبيها وعن زوجها، وفي انتظار أن يؤذن لها بالهجرة والانضمام إلى ركب الإيمان...

* * *

هاجر أبو بكر إلى الله وقد أخذ معه كل ماله لينفقه في سبيل الله...

وترك أهله وقد وكلهم إلى الله.

كان أبو قحافة، يرى في إنفاق ولده أبي بكر لماله في سبيل هذا الدين مرزأة، كان يرى، وقد أقام على كفره، أن ينفق ولده ماله على تجارة يثمرها أو عبيد يخدمونه...

وعندما هاجر أبو بكر وترك أهله خشي أبو قحافة أن يكون ابنه قد تركهم بلا مال. . .

وجاء أبو قحافة إلى أسماء وقال لها: إني لأخشى أن يكون أبو بكر قد فجعكم بماله مع نفسه؟

وهنا تقف أسماء المؤمنة المجاهدة موقفاً جديداً يستحق الإكبار. . . قالت: كلا يا أبت، لقد ترك لنا أبي خيراً كثيراً. . .

وأسرعت إلى مجموعة من الحصى بحجم النقود، فوضعتها في كيس وغطتها بثوب، ثم وضعتها في كوة كان الصديق يضع ماله فيها. . . وتقدمت من الشيخ العجوز الكفيف وأمسكت بيده ووضعتها على الكيس قائلة: لقد ترك لنا أبي خيراً كثيراً.

عند ذلك قال العجوز: لا بأس إن ترك لكم هذا، فقد أحسن. . ففي هذا بلاغ.

إن الذي كان يشغل أسماء أكبر من المال. . وأعظم من الطعام والشراب، لقد كان يشغلها أمر الدعوة التي تحمل أعباءها مع الرسول الكريم ووالدها الصديق وزوجها الزبير وإخوانها وأخواتها من سائر المسلمين. .

لهذا كان أمر المال عندها هيناً. . . لم يترك لها أبوها مالاً. . . ولكنه ترك لها خيراً كثيراً. . ترك لها إيمانها بالله وثقتها بفضله، ترك لها هذا الحب الكبير للدعوة السامية ولمن آمن بها وصدَّق رسولها. . .

وهكذا هي المرأة المسلمة التي ملأ قلبها حبُّ الله ورسوله، لا يضيرها أن تكون فقيرة المال وهي غنية العقيدة، راسخة الإيمان.

* * *

وعندما استقر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهاجرون في المدينة، وبدأوا في بناء مسجد الرسول نواة الدولة الحديثة، استدعى رسول الله

زيد بن حارثة وأبا رافع وكلفهما بالذهاب إلى مكة وإحضار أهله منها، وأرسل أبو بكر عبد الله بن أريقط ليكون دليلهم، وزودهم بنفقة الطريق...

وصل الركب إلى مكة مستخفياً، ورتب هجرة النساء والأطفال...

خرج الركب المهاجر وفيه: فاطمة وأم كلثوم بنات رسول الله ـ عليه السلام ـ

وسودة بنت زمعه ـ زوجه...

وأم أيمن زوج زيد بن حارثة وحاضنة

النبي ـ صلوات الله عليه.

وأسامة بن زيد.

وعبد الله بن أبي بكر.

وأم رومان زوج الصديق ـ رضي الله عنه ـ

وعائشة وأسماء ابنتا الصديق.

وكما هاجر الصديق مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونال هذا الشرف العظيم، كذلك نالت أسرة الصديق شرف الهجرة مع أسرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

كانت أسماء ـ رضي الله عنها ـ فخورة بهذه الصحبة المباركة.

وكانت في شوق لأن تطوي المسافات إلى المدينة، ففيها رسول الله وفيها أبوها وفيها زوجها...

وهناك في المدينة بشائر انتصار الدعوة، وأجواء العمل الواسع في سبيل الله...

لهذا كان شوق أسماء عظيماً لأن يصل الركب إلى المدينة، فهي في شوق إلى كل من فيها، فكل من فيها لها إخوة، وهي في شوق إلى كل ما فيها، فكل ما فيها خير تود أن تساهم فيه، فهي في بدئه كانت لها مساهمة كبيرة، وهي في مسيرته تود أن تكون لها مساهمة أكبر...

* * *

وجدت أسماء المدينة تموج بالأحداث. . .

المسلمون، مهاجروهم والأنصار، متفانون في العمل لإعلاء كلمة الله، ليس لهم هم سوى ذلك.

والمنافقون قد نجم نفاقهم، هابوا المسلمين فأسلموا بألسنتهم وأضمروا الكفر بقلوبهم.

واليهود. . أهل الكتاب. . الذين كانوا من الناحية المنطقية أقرب الناس إلى المسلمين، لو رضي اليهود أن يحتكموا إلى المنطق والعقل، وقفوا من الدعوة موقفاً عدائياً. . .

كان أول ما سلوه في وجه المسلمين دعايات مغرضة أرادوا بها أن يفتوا في عضد المسلمين وأن يشغلوهم عن العمل الجاد لدعوتهم. . .

أشاعوا أنهم سحروا المسلمين فلا يلد لهم مولود في المدينة.

وكان قد مرّ على وجود المسلمين في المدينة أشهر ولم يلد لهم فيها مولود.

لقد لاحظ ذلك خبثاء اليهود، فاستغلوه وأعلنوه. . .

وساور المسلمين قلق لهذا الأمر. . .

ولكن القلق لم يطل بهم إذ أعلن في المدينة أن أسماء بنت أبي بكر قد وضعت مولوداً للزبير بن العوام.

وهلل المسلمون لهذا النبأ وكبروا.

ورد الله كيد يهود في نحورهم، فكُبتوا. . .

وفرحت أسماء أن كانت أول نساء المسلمين ولادة في المدينة.

وفرحت أكثر من ذلك أن ولادتها كانت فرجاً للمسلمين مما ساورهم من دعاية يهود وإرجافهم.

وأسرعت أسماء بوليدها إلى رسول الله، فحنكه بتمر بعد أن لاكها بريقه الشريف، ثم أسماه عبد الله. . .

فكان عبد الله بن الزبير . . ابن أسماء أول مولود للمسلمين في المدينة بعد الهجرة . . .

وسُجل ذلك لأسماء المجاهدة ذات النطاقين أم عبد الله بن الزبير أول مولود للمسلمين بعد الهجرة.

* * *

في بيتها كانت أسماء نعم الزوجة، عاشت مع زوجها الزبير ولا مال لهما، فكانت تقوم بأعمال البيت جميعها بنفسها، راضية النفس، ناعمة البال . . .

تقول أسماء: «**تزوجني الزبير وما له في الأرض مال ولا مملوك، ولا شيء** غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز، فكان يخبز جارات لي من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ».

هذه السيدة الجليلة والمرأة المؤمنة مثال لنسائنا . . .

امرأة أعانت زوجها على فقره . . لم تتذمر . . لم تشك، بل قامت بكل أعباء البيت، ووفرت لزوجها كل أسباب الهناء.

هذه السيدة التي كتبت آيات من الفخار في جهادها إلى جانب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتبت آيات أخرى في بيتها إذ وقفت إلى جانب زوجها تقوم بما ينوء بحمله مجموعة من النساء.

إنها المسلمة القدوة، مجاهدة في أمور المسلمين العامة، ومجاهدة في بيتها . . .

وهي من بعد قامت على تربية أبنائها، فأرضعتهم حب الإسلام، ونشأتهم على الرجولة والشهامة، فكانوا مثالاً للرجال، وكانوا نجوماً في تاريخ الإسلام.

أنجبت بعبد الله وعروة والمنذر وعاصم والمهاجر.

وكلهم ربتهم على مبادىء لا يحيدون عنها.

فإذا ذكرنا في تاريخ الإسلام رجال قيادة ذكرنا عبد الله بن الزبير وذكرنا إخوته معه.

وإذا ما ذكرنا في تاريخ الإسلام عُباداً، ذكرنا عبد الله بن الزبير.. حمامة المسجد كما لقبه الناس لعبادته ولزومه بيت الله...

وكذلك كان إخوته...

ولقد ثبتت أسماء على تمسكها بالمثل العليا حتى آخر لحظة في حياتها... وفاء لهذه الدعوة التي آمنت بها وامتزج بها دمها، فعاشت بها وماتت عليها...

سُميَّــة ... الشهيدة الأولى

قدم ياسر بن عامر العنسي من اليمن إلى مكة وفي نيته أن لا يرجع إلى اليمن. . . لقد كان شديد الرغبة في الإقامة في مكة قرب الحرم. . . ولعله قد أطلق لأحلامه العنان فمنى النفس بعيشٍ رغيد وزوجة جميلة وأسرة وادعة. . . ولعله حين اختار أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي حليفاً طمأن نفسه بأن الطريق إلى السعادة قد فتح له، وكيف لا يفتح له وبنو مخزوم من ذوائب قريش، وبنو المغيرة ذؤابة مخزوم وأبو حذيفة في الذروة من بني المغيرة!

وعاش ياسر في كنف أبي حذيفة، وأُعجب أبو حذيفة بياسر حتى إنه أعتق مولاته سُمية بنت خُبّاط وزوجها منه. . . كانت سمية أثيرة عند أبي حذيفة كما كان ياسر أثيراً عنده. . .

وتلقت مكة خبر زواج ياسر من سمية بارتياح ورضاً، وكيف لا ترضى ما رضيه سيد من ساداتها، وكيف لا ترتاح لزواج رجل من حلفائها، رضيِّ الخلق، كريم النفس، بامرأة من مواليها عطرة السيرة بين الرجال فضلاً عن النساء. . .

وأثمر هذا الزواج مولودين اختار لهما الأبوان اسمي عمّار وعبد الله، وعاشت الأسرة في كنف أبي حذيفة وفي رعايته، لم يعرف عنها إلا الخير كل الخير، ولم يكن لهذه الأسرة من هم سوى تربية هذين الولدين، وكان أقصى ما

يتمناه الأبوان أن يشب ولداهما مثل ما يشب عليه فتيان قريش، فقد كانت قريش بين العرب مثالاً يحتذى، وكان شبابها قدوة بين الشباب في جزيرة العرب كلها.

وأفرغت سمية جهدها في رعاية هذه الأسرة، وكانت سعادتها تزداد كلما ازداد نمو هذين الوليدين، وشب الوليدان كما تمنت لهما الأم وكما تمنى لهما الأب.. فعرفا بين شباب قريش بالأخلاق الرفيعة والاستقامة في كل الأمور، لهذا كانا محل رضى شباب قريش ومن قبل ذلك شيبهم.

ومضت أسرة ياسر في حياتها كما تمضي كل أسرة في قريش في هذه الحياة... ولم يكدر هذه الأسرة شيء سوى موت أبي حذيفة، ولكن سرعان ما مضى هذا الحادث، وسرعان ما مضت أمور الأسرة مرة أخرى تسير على ما تسير عليه أسر قريش كلها.

وجاء الحادث الذي زلزل الحياة في قريش... وأخذ الناس يتناقلون نبأ نبوة محمد وما جاء به محمد، وكان من أشد الناس عداوة للدعوة الجديدة بنو مخزوم وسيدهم أبو الحكم بن هشام الذي عرف فيما بعد بأبي جهل...

وكان من البداهة أن تطرق أسماع ياسر وأسرته أخبار الدعوة الجديدة، فهم حلفاء بني مخزوم ويعيشون بينهم وفي حيهم... وكان من بين هذا الذي سمعوه موقف أبي جهل ورهطه من الدعوة الجديدة.

وأحب ياسر أن يسمع خبر الدعوة من صاحبها، فاجتمع بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دار الأرقم، وسمع منه، وأعجبه ما سمع... فآمن وصدق، وانطلق إلى امرأته سمية وشرح لها الإسلام فآمنت، وجمع ياسر وسمية ابنيهما، وعرضا عليهما ما آمنا به من دعوة الإسلام، فآمنا، وانطلق الجميع إلى دار الأرقم، واجتمعوا برسول الله، وأعلنوا إسلامهم بين يديه...

كانت الدعوة سرية، يؤمن من يؤمن بها فيكتم إيمانه، ذلك لأن قريشاً تناولت من آمن بالأذى واشتطت في العذاب وبالغت به... بل وخرجت به عن حد المبالغة...

وعلى الرغم من ذلك أبى نفر ممن آمن إلا أن يستعلن بإيمانه.. وكان ممن فعل ذلك، وأعلن إيمانه وافتخر به ياسر وزوجه سمية وابنهما عمار...

قامت الدنيا في بني مخزوم ولم تقعد... وكيف لا يكون ذلك وهم الذين رفعوا راية العداء للدعوة وصاحبها ومنهم كان قائد الكفر وزعيمه...

وجاءت بنو مخزوم إلى ياسر وزوجه وابنه... قالوا: يا حلفاءنا وأحبابنا... أحق ما سمعناه عنكم؟

قال ياسر: وما الذي سمعتموه؟

قالوا: سمعنا أنكم بايعتم محمداً وآمنتم بما جاء به..

قال ياسر: قد فعلنا.

قالوا: ألم يبلغكم أنه يسفه آراءنا ويعيب آباءنا ويسب آلهتنا؟

قال ياسر: قد بلغنا ذلك.

قالوا: وتابعتموه على رأيه وأنتم تعلمون؟

قال ياسر: نعم، قد آمنا بالله وبما جاء به رسوله...

قالوا: وكفرتم باللات والعزى وهبل؟

قال ياسر: نعم قد كفرنا باللات والعزى وهبل..

والتفت نفر من بني مخزوم إلى سمية يستفسرون: أهي موافقة لزوجها أم ترى غير ما رأى.

قالت سمية: آمنت بالله رباً وبمحمد رسولاً.

قالوا: إذن نسومكم سوء العذاب.

فما كان من ياسر وسمية وعمار إلا أن قالوا: افعلوا ما أنتم فاعلون، فوالله لا نرجع عن الهدى بعد أن عرفناه.

وما أسرع ما نفذ الطغاة ما هددوا به.. أخذوا المؤمنين الثلاثة وقيدوهم بالسلاسل، ثم جروهم بها إلى بطحاء مكة.. حيث الرمال الساخنة والشمس

الحارقة، ثم انهالوا عليهم ضرباً بالسياط وركلاً بالأقدام... والمعذبون في سبيل الله لا يرجعون عن إيمانهم...

ولم يردع بني مخزم عن ضلالهم أنهم يعذبون امرأة.. ولم يردعهم أنهم يعذبون امرأة قد أسنَّت.. ولم يردعهم عن غيهم وضلالهم ما يرونه منها من صلابة في الإيمان وإصرار عليه... بل إن ذلك غاظهم وفجر الأحقاد في صدورهم...

ولم يكن المسلمون يملكون لآل ياسر شيئاً، فقد كانوا قلة مستضعفين يستخفون بإسلامهم عن قومهم مخافة مصير كمصير آل ياسر...

وكان رسول الله يمر بهؤلاء المؤمنين المعذبين فلا يملك لهم إلا الدعاء... وهم كانوا يستروحون السعادة عندما كانوا يسمعون رسول الله حين يقول لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» وماذا يريد هؤلاء المؤمنون إلا الجنة؟

كانت كلمات الرسول لهم زاداً، كانت كلماته دفقات من عزيمة تسري في أرواحهم، فيصبرون... ويُرون من أنفسهم قوة وإصراراً على ما آمنوا به.. حتى ضاق بهم بنو مخزوم وبما هم عليه من إصرار وثبات...

وجاء زعيم بني مخزوم... رأس الكفر وفرعون هذه الأمة، فرأى سمية العجوز الفانية ثابتة على إسلامها مستعلية بإيمانها... وظن أنه إذا دعاها إلى النكوص عما آمنت به نكصت.. وكيف تخالف أمره وهو الآمر الناهي على السادة في قريش؟

فخاطبها فأبت إلا إيماناً، وهددها فما زادها تهديده إلا إصراراً، ورفع رمحه في وجهها فما قابلته إلا بابتسامة ساخرة...

وطاش عقل الرجل... فأهوى برمحه على بطنها.. وانزلق الرمح أسفل

البطن، فقضت سمية شهيدة في سبيل الله. . . وذهب أبو جهل بخزي الدنيا والآخرة. . .

واستقبلت السماء أول من استشهد في الإسلام ومعها دعاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «اللهم لا تعذب أحداً من آل ياسر بالنار». . .

وأسرعت سمية إلى ربها حيث تنتظر رسول الله في الجنة. . . ألم يقل رسول الله لآل ياسر: «إن موعدكم الجنة»؟

هذه سمية بنت خُباط أول شهيدة في الإسلام.

ألا يرفع من شأن المرأة المسلمة أن يكون أول من استشهد في سبيل الإسلام امرأة؟

بلى. . . إنه لفخر دونه كل فخر، وإنه لحادث يسجل في سجل المرأة المسلمة. . عنوان فخار ومجد.

نسَيبة بنت كعبٍ «أمّ عـمارة»

امرأة من بني النجار من الخزرج. . تزوجت مرتين، في الأولى تزوجت زيد بن عاصم من قومها بني النجار فأنجبت منه بولدين: عبد الله بن زيد وحبيب بن زيد، وفي الثانية تزوجت غزية بن عمرو من بني النجار أيضاً فأنجبت منه بولدين: تميم بن غزية وخولة بنت غزية.

من المرجح أن يكون زوجها الأول قد مات قبل أن يسلم أما ولداه فقد كانا صحابيين، ولهما مشاهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأما زوجها الثاني غزية بن عمرو فقد كان صحابياً شهد مع رسول الله مشاهد وكذلك ولده تميم، وابنته خولة كانت صحابية أيضاً. . .

كان من الممكن أن لا يكون لهذه المرأة تاريخاً لولا الإسلام وما بعثه في العرب من حيوية وما فجر فيهم من طاقات. . .

لكن الإسلام جعل من هذه المرأة كائناً آخر. . جعل منها نموذجاً للمرأة المسلمة العاملة المجاهدة. . .

* * *

كان ظهور نسيبة ظهوراً مبكراً. . . كانت ـ رضي الله عنها ـ من

الأنصاريات الأوائل اللاتي آمنَّ وبايعن، فقد كانت من بين الذين بايعوا الرسول في بيعة العقبة الكبرى. . .

كان لبيعة العقبة أهمية خاصة في تاريخ الإسلام، كانت هذه البيعة مرحلة جديدة في حركة الدعوة الإسلامية، انتقلت بها من نقطة الدفاع السلبي بالصبر والجلد والتحمل إلى مرحلة الدفاع الايجابي بحمل السلاح ومواجهة العدوان، وانتقلت بالدعوة أيضاً من مرحلة بناء الدعاة إلى مرحلة بناء الدولة. . . لهذا كان كثير من الصحابة يرون أن حضور العقبة أعلى شرفاً من حضور بدر، على ما كان لبدر من شهرة ومكانة بين المسلمين: . .

كان المبايعون في العقبة اثنين وسبعين رجلًا وامرأتين. . . أم عمارة نسيبة بنت كعب وأم منيع أسماء بنت عمرو. . .

وبعد أن تكلم الرسول وتكلم الأنصار، قاموا لمبايعة الرسول، تقول أم عمارة: «كانت الرجال تصفق على يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما بقيت أنا وأم منيع، نادى زوجي غزية بن عمرو: يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا يبايعنك فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء».

هكذا إذن. . . صافح الرسول الرجال مبايعاً على أن يمنعوه وعلى أن يمنعوا الدعوة إلى الله بأسيافهم. . . وعلى هذا بايع الرسول النساء أو من مثَّل النساء في العقبة على ما بايع عليه الرجال. . . أما المصافحة فلم يكن رسول الله يصافح النساء. . . إنما البيعة باللسان. . .

وانطلق الأنصار يوفون بالبيعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك فعلت أم عمارة. . لقد وفت ببيعتها لرسول الله، وكل لحظة من لحظات حياتها تنبينا أنها وفت ببيعتها ولم تقصر في هذا الوفاء، وسوف نستعرض حياتها

ومواقفها لنرى أي وفاء وفت وأي جهاد جاهدت هذه المرأة العظيمة. .

انهزمت قريش في بدر شر هزيمة، قتل في بدر سادات قريش وصناديدها، وأسر في بدر عدد من رجالاتها ممن يشار إليهم بالبنان. . . وأحنق ذلك قريشاً، وصممت على الانتقام، وحشدت لذلك حدها وحديدها، وأقبلت زاحفة على المدينة تريد أن تنتقم، وتود لو تستطيع أن تستأصل المسلمين استئصالاً. . .

وخرج المسلمون لملاقاة عدوهم. . . وخرجت مع الرجال مجموعة من النساء منهن أم عمارة، خرجت ومعها سقاؤها تدور به على المسلمين تسقي عطاشهم، ومعها عصائب قد علقتها في وسطها تضمد بها جرحاهم، كانت أم عمارة ترقب المعركة، فرأت انتصار المسلمين، فسرها ذلك، وأثلج صدرها، ولكن هذا الذي سرها سرعان ما انتكس بهزيمة المسلمين بعدما خالف الرماة أمر رسول الله وتركوا مراكزهم، ودبت الفوضى في صفوف المسلمين، وأخذوا يفرون من حول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يبق حوله من يدافع عنه سوى عشرة من الرجال، واندفعت أم عمارة نحو الرسول تذب عنه وقد شمرت ثوبها إلى وسطها. . ويلتفت رسول الله إلى رجل مولٍّ فيأمره أن يلقي بسلاحه إلى من يقاتل. . . وتندفع أم عمارة إلى الترس الذي ألقاه الرجل فتحمله تترس عن نفسها وتقاتل من يحاول الاقتراب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وعلى قلة من بقي حول رسول الله في هذا الوقت العصيب فقد بقي معه ولدا أم عمارة وزوجها. . لقد صمدت أسرة أم عمارة بكاملها تفي للرسول ما عاهدته عليه، تفي له في الوقت الذي فرّ من حوله كثير من الرجال ومنهم من عرف بالشجاعة والإقدام ومن شهد له الناس بالبطولة في ميادين القتال. . ولكنه موقف تزلزلت فيه الأقدام وبلغت فيه القلوب الحناجر. . . فلم يثبت فيه إلا ذوو العزم من الرجال. . . وأم عمارة.

وحمي وطيس الحرب حول رسول الله، وتحلق حوله من صمد من

الصحابة يضاربون بالسيوف ويطاعنون بالرماح ويرمون بالسهام، لا يفتر لهم ساعد ولا تطرف لهم عين، يتابعون المهاجمين ويردونهم خائبين، وأم عمارة في أوج اندفاعها تقاتل بالسيف وترمي عن القوس، وأبلى ابناها وزوجها أعظم البلاء في هذا الدفاع المستميت عن رسول الإسلام، وجرح ابن أم عمارة عبد الله بن زيد في عضده الأيسر، فلم يبال بما أصابه وتابع قتاله، ورأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جرحه ينزف، فقال له: اعصب جرحك يا عبد الله. . . وتسمع ذلك أم عمارة، فتندفع إلى ابنها فتعصب له جرحه ثم تقول له: انهض بُني فضارب القوم.

وأعجب ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لها: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة!

وأقبل الرجل الذي ضرب ابنها فقال لها الرسول: هذا ضارب ابنك يا أم عمارة.

فاندفعت نحوه أم عمارة فضربت ساقه فبرك على الأرض. . . وساعدها رجال من المسلمين فأجهزوا عليه. وتبسم رسول الله وقال لها: استقدت يا أم عمارة. . .

وتابع المدافعون عن رسول الله جهادهم، لا يدعون أحداً يقترب من رسول الله إلا أوردوه الجحيم وينظر رسول الله إلى رجل يذب عنه فيعرفه. . إنه عبد الله بن أم عمارة. . فيقول له: ابن أم عمارة؟

فيقول الرجل: نعم.

فيقول له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ارمِ.

وأخذ عبد الله يرمي بين يدي رسول الله.

واندفع ابن قميئة نحو رسول الله وهو يقول: دلوني على محمد. . . أين محمد لا نجوت إن نجا وتتصدى له أم عمارة فيضربها بالسيف على عاتقها، فتصاب بجرح غائر، فيتدفق دمها، ويراها رسول الله، فينادي على ابنها ويقول

له: يا بن أم عمارة.. أمك أمك، اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت... مقام أمك خير من مقام فلان وفلان (لرجال يسميهم) «رحمكم الله أهل البيت، ومقام ربيبك (زوج أمك) خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت».

وتلتفت أم عمارة إلى رسول الله وتقول: ادع الله لنا أن نرافقك في الجنة.

فيقول رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة».

وتنزل كلمات رسول الله على قلب أم عمارة نزول الطمأنينة والارتياح.. وتملأ فؤادها سروراً لا يعدله سرور، وتقول وهي في نشوة هذه الدعوة المباركة: والله ما أبالي ما أصابني من الدنيا.

* * *

لقد قامت أم عمارة في أحد مقاماً لا يقومه كثير من الرجال، فاستحقت عليه ما نالته من جزاء ليس بعده جزاء.. مرافقة رسول الله في الجنة...

هذه امرأة مسلمة تقدم قدوة لبنات جنسها من النساء المسلمات.. امرأة مجاهدة، بل تعشق الجهاد ولا تدعه لشيء أبداً...

وانجلت معركة أحد عن نجاة رسول الله وانسحاب قريش وقد نالت من المسلمين ما اعتبرته انتقاماً لما أصابها يوم بدر...

ولم يلبث رسول الله في المدينة إلا سويعات، وسرعان ما دعا من كان معه في أحد ليلاحقوا قريشاً لعلهم ينزلوا بها هزيمة قبل أن تصل مكة.. وتسمع أم عمارة بنداء رسول الله، فتحاول أن تقوم... ولكن جراحها النازفة لم تمكنها، فألقت نفسها على فراشها، وأسلمت نفسها لمن يمرضها.

وعندما عاد رسول الله ـ صلى الله عليه ـ من وجهه ذاك كان أول ما فعله أن سأل عن أم عمارة، فلما علم بالتحسن الذي طرأ عليها، ارتاح لذلك... أما أم

عمارة فقد شد من عزمها سؤال رسول الله عنها. . . وتبسمت راضية وهي تتذكر دعاءه لها ولزوجها وأبنائها: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة. . .

وتابعت أم عمارة جهادها مع رسول الله، فكانت تخرج ونساء من المسلمات مع الجيش الإسلامي في وجوه جهاده، تسقي العطشى، وتضمد الجراح، وتعد حوائج الجيش، وتباشر القتال إن احتاج الأمر إلى مباشرة القتال كما حدث يوم أحد.

لقد حضرت مع رسول الله الحديبية وخيبر وعمرة القضية وحنين وبيعة الرضوان. . .

وعندما ظهر مسيلمة الكذاب باليمامة أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حبيب بن زيد، ابن أم عمارة بكتاب منه إلى مسيلمة، فما رعى مسيلمة ما تعارف عليه الناس من المحافظة على سلامة الرسول، ولكن مسيلمة قال لحبيب: أتشهد أني رسول الله؟

قال حبيب: لا.

قال مسيلمة: أتشهد أن محمداً رسول الله.

قال حبيب: نعم أشهد أن محمداً رسول الله.

عندئذ شد مسيلمة أيدي حبيب ورجليه، وأخذ يقطع أوصاله شلوا شلوا وهو يقول له: أتشهد أني رسول الله؟ ويجيب حبيب: لا، بل أشهد أن محمداً رسول الله، فما زال الكذاب يعذبه حتى استشهد بطلاً مؤمناً ثابتاً ثبوت الرواسي. . .

ويبلغ ام عمارة ما أصاب ابنها، فتسترجع، وتحتسبه عند الله. . ثم تقسم أن تنتقم له. . . وتدور الأيام. . وينتقل الحبيب إلى الرفيق الأعلى. . ويرتد العرب. . ويستفحل أمر مسيلمة، فيعد أبو بكر الجيوش لمحاربة المرتدين، وتندفع أم عمارة متطوعة في الجيش الذاهب لمحاربة مسيلمة الكذاب.

وتنشب المعركة، وتشارك أم عمارة الرجال في الحرب، فتضرب بسيفها أعداء الله، وتصاب بالجراح، ولكنها لا تكف عن القتال ولا ترضى أن تستجيب لمن ينصحها بالخلو إلى الراحة حتى تضمد جراحها، فهي لا تهتم بهذه الجراح، فإن ذكرى ابنها حبيب الذي عذبه ومثل به مسيلمة تلح عليها أن تتابع القتال حتى تنال من عدو الله أو تقر عينها برؤيته مجدلاً بدمائه. . .

وينزل الله نصره على المؤمنين، وتحيق الهزيمة بأعداء الدين، ويندفع نفر من المسلمين نحو مسيلمة يريدون أن ينالوا شرف قتله وتخليص المسلمين من شروره، ويندفع إليه وحشي بن حرب فيطعنه، ويندفع إليه عبد الله بن زيد ابن أم عمارة فيغمد فيه سيفه. . . ويندفع المسلمون كل يريد أن يروي سيفه من هذا الكذاب الذي سفك الدماء وأشاع الكفر بين الناس، وتصل أم عمارة وقد أصبح مسيلمة أشلاء ممزقة، وشفى الله صدرها وأقر عينها بمقتله شر قتلة. . .

وانتبه المسلمون إلى هذه المرأة المجاهدة. . .

كانت يدها قد قطعت. . وجراحها تنزف وهي شاخصة ثابتة. . وهنا تذكر الناس قول رسول الله: ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة!

ويسرع المسلمون إلى تضميد جراحها ورعايتها. . .

ويعود الجيش الظافر إلى المدينة.

ويتلقى أبو بكر هذا الجيش مهنئاً بالنصر.

ويسأل عن أم عمارة، ويعودها، ويرعاها.

وعندما تولى عمر بن الخطاب الخلافة كان يخص أم عمارة بالرعاية الفائقة، ولما عوتب ذات يوم على مبالغته في رعايتها قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني».

أفلا تستحق وهي كذلك أن تلاقي من خلفاء الرسول الرعاية الفائقة.

بلى، لقد كانت أم عمارة مثلاً حياً للمرأة التي صنعها الإسلام فوفت له، وجاهدت في سبيله وقدمت أبناءها فداء له.. فهي الجديرة بأن تكون مثالاً يقتدى للمرأة المسلمة في كل العصور...

رحم الله أم عمارة، لقد سجلت للمرأة المسلمة في كتاب الخلود صفحات مشرقات.. وهي مع ذلك كله كانت حريصة أن يكون للمرأة في دنيا الإسلام ما للرجل من حقوق، فقد قالت لرسول الله ذات يوم: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن في شيء؟!

وكان الرد على تساؤلاتها آيات من كتاب الله تحقق لها ما تصبو إليه...
﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾[1].

وأي تكريم للمرأة بعد هذا التكريم؟

وأي مساواة تريدها المرأة أرفع من هذه المساواة؟

رحم الله أم عمارة الصحابية المبايعة المجاهدة ورحم زوجها وأبناءها صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٥.

صَدَر للمؤلّف

(*) تطلب جميع هذه الكتب من: دار الضياء للنشر والتوزيع، الأردن ـ عمان ـ ص. ب. ٩٢٥٧٩٨.

٣ ـ عبد الرحمن بن قاسم المعاودة شاعر من قطر
٤ ـ عبد الله بن علي الخليلي شاعر من عُمان
٥ ـ حسن عبد الله القرشي شاعر من الحجاز
٦ ـ أحمد مشاري العدواني شاعر من الكويت
٧ ـ إبراهيم العريِّض شاعر من البحرين
٨ ـ صقر بن سلطان القاسمي شاعر من الإمارات
٩ ـ علي أحمد باكثير شاعر من حضرموت
١٠ ـ يوسف العظم شاعر الأقصى
١١ ـ سعيد عبد الهادي تيم من شعراء الوطنية في فلسطين

كتب تالية

١ ـ أناشيد الدعوة الإسلامية ـ المجموعة الرابعة.
٢ ـ شهداء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.
٣ ـ أجمل مائة قصيدة في الشعر الإسلامي المعاصر.
٤ ـ قاموسك الثقافي: الكنز الذهبي في المعلومات العامة.
صدر منه خمسة أجزاء وفي الطريق إليك خمسة أجزاء أخرى
إن شاء الله

الفهرس

هذا الكتاب

* لقد بعث هذا الدين فى نساء المسلمين عزاً ومجداً ، وهم به يحيون حياة السمو والفخار ، ولقد أراد الأعداء لنسائنا أن يعشن حياة الذل والهوان ، فشغلوهن بالتافه من الأمور ، وبالصغائر من الأعمال .

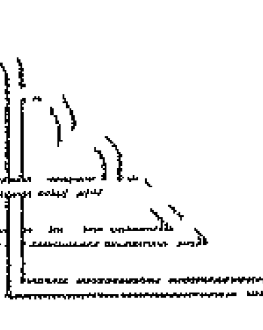
* فهل آن الأوان لنسائنا أن ينهضن وأن يمددن أياديهن للمساهمة فى نهضة الإسلام المعاصرة وصحوته المباركة ؟

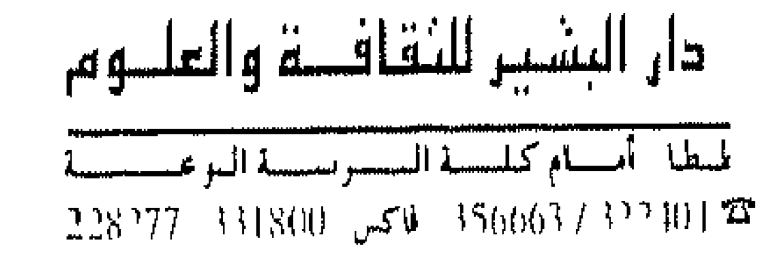
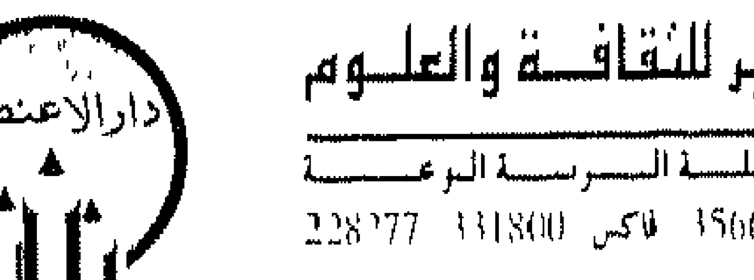
* إن خيال أولئك النساء القادمات مع الفجر الجديد سوف يغدو حقيقة واقعة ، وقد بدأت طلائعهن تهل مع بشائر النصر لديننا ، بشائر النصر التى تلوح فى أفق الإسلام الساطع من جديد .

* هذا الكتاب : هدية لأولئك المسلمات اللواتى نراهن فى خيالنا وقد خلعن لباس الغرب المتهالك" وارتدين لباس الإسلام السامى .

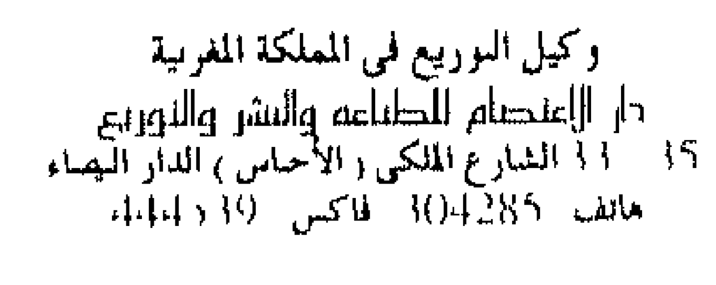
ودار البشير إذ تقدم هذا الإصدار ترجو من الله القبول ومن قرائها الأعزاء الدعاء .

والله من وراء القصد





دار البشير للثقافة والعلوم
طنطا أمام كلية التربية النوعية
☎ 322101 / 356663 فاكس 331800 228277




وكيل التوزيع فى المملكة المغربية
دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع
35 33 الشارع الملكى (الأحباس) الدار البيضاء
هاتف 304285 فاكس 39 د 444